الفصل الثالث

قضايا الاغتراب الميتافيزيقي في شعر أبي العلاء

obeikandl.com

obeikandl.com

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر البنيث
لفقدي ناظري، ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسم الخبيث

اعتبر أبو العلاء فقد البصر أول سجونه، وعده مدخله إلي عوالم العجز والقيد والتوقف، التي انتهت به إلي التأمل الواسع في وجود الإنسان الذي رآه أبو العلاء وجودا مقيدا في هذا الكون

كان فقد البصر أول عزلة عرفها أبو العلاء المعرى، إذ حال بين الحياة السوية وبينه، ومن ثم بينه والأحياء، فكان تعرفه علي الحياة المحيطة تعرفا يتحكم فيه إحساس وعقل معزولان عن الحياة بحكم العاهة، معزولان في المهما رغم كل الصخب المحيط بهما... وقد زاد أعوجاج الحياة أو أعوجاج العالم الخارجي من هذه العزلة الداخلية، حتى تبلرت في شكل عزلة مادية عن الخارج، مما فتح الباب واسعا للتأمل في كنه وجود الإنسان في الكون.

لذلك نعتقد أن رحلة بغداد- بما تضمنته من حادثة موت الأم- لم تكن العامل الوحيد الرئيسي المباشر الذي دفع أبا العلاء إلي تلك الحياة الخاصة، بل كانت تلك الرحلة بأحداثها بمثابة الرتاج الذي أغلق به أبو العلاء الباب بينه وبين أية محاولة لمهادنة الحياة، أو الصبر علي الواقع... والتظاهر بالقدرة عليه.

نقول ذلك لأن رحلة بغداد سبقت بتراكمات هائلة وبمخزون واسع من الألم، والشعور بالإخفاق والعجز والفشل، فأكدت له هذه الرحلة وأكد له فقده أمه في تلك المرحلة الحرجة من حياته أنه لن يكون الأقوى في هذا الصراع الضاري بينه وبين الحياة

.. كانت الأحداث الأخيرة رموزا عميقة، شكلت مع ذلك الموروث المتراكم الكئيب الذي أدخره أبو العلاء من معاناة فقد البصر- شكلت دافعا منطقيا نحو حياة غاية في الخصوصية.. والعمق.. والاضطراب" أن" أبا العلاء لما عبر إلي بغداد اجتاز في طريقه وهو راكب علي جمل بشجرة، فقيل له. طاطئ رأسك، ففعل وأقام ببغداد مدة إقامته بها. فلما عاد من بغداد إلي معرة النعمان. اجتاز بذلك الموضع، وقد قطعت تلك الشجرة. فطاطأ رأسه. فسئل عن ذلك، فقال هاهنا شجرة، فقيل له: ما هاهنا شئ فقال بلي، قد كان هاهنا شجرة

حين عبرت هذا منحدرا إلي بغداد، فحفروا في ذلك الموضع فوجدوا أصلها"[1]... أن قولهم" طأطئ رأسك" قد حفر في ذاكره أبي العلاء لا لفطنته، ونكائه- كما يريد القدماء أن يثبتوا من خلال هذه القصة-.. بل لاكتئابه علي كل ما يمثل له خفضا للراس، أو ألما وعجزا.. ولأنه عاد من بغداد حاملا هذا الشعور، باحثا عن معادلة الموضوعي في الموقف والأحداث والرموز...

أن " داخل" أبي العلاء الكئيب لابد أن يحتفظ بمثل هذه المعاني، وان عودته من بغداد لتحمل أحداثا ورؤى ربما كانت غير رئيسية في ظاهرها لكن الأديب الوجودى" لا يتخذ من الأحداث رموزا وعلامات علي الجوهر الباطن في أعماق الوجود كله، فالأمر الذي يحياه في لحظة، هو ألم مرفوع إلي أس السرمدية، والانفعال الذي ينطبع في نفسه من موضوع محدد... سرعان ما يفتح علي الوجود الواحد بأسره، وهذا هو ما يميز الأديب الوجودي بحق. فكاين من حدث تافه عند الناس، يصبح لديهم حدث الأحداث، لا لمبالغة في تقديرهم.. أو لافراط في التخيل الجامح لكن لأنهم يقولون مع جيته." كل حادث رمز" فما بالك وقد لقوا في دنياهم عنتا ليس بالهين"[2] وأبو العلاء يحمل كثيرا من هذه السمات النفسية[3].

والتجارب لا تصبح بين يوم وليلة مخزونا للثراء والتأمل.. أو مطية سهلة لانتهاج العمق ونكاء الروح، بل تتدرج في تأثيرها من المرحلة البدائية- مرحلة استقبال الحواس للتجربة- وهي مرحلة انفعال واهتمام وقلق أي مرحلة حيرة،- تتدرج التجارب من هذه المرحلة- إلي مرحلة الإدراك " فيتأثر الإدراك بموقف الإنسان من الشئ المدرك، ويؤثر في تطلعاته ورغباته ومشاعره ومتطلباته ومصالحه واهتماماته.. ويلعب الإدراك دورا كبيرا في عملية معرفة العالم المحيط.. وهو يشكل إلي جانب صنيع الانعكاس الحسي (مثل الإحساس والتصور) ما هو أشبه بالنسيج الحي لمعارفنا، فبفضله يعكس شيئا الإنسان العالم المحيط بكل تنوعه وغناه. والإدراك كونه دوما معقولا واعيا يمثل بدوره

---

(١)أبو العلاء المعرى/ اللزوميات. تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي. منشورات مكتبة الهلال بيروت. مكتبة الخانجي . القاهرة . ص١٨٨.

(٢)ابن العديم / الانصاف والتحرى. تعريف القدماء بأبي العلاء . جمع وتحقيق لجنة من وزارة المعارف العمومية بإشراف د.طه حسين مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م ص ٥٥٩.

(٣) أبو حيان التوحيدي. الإشارات الإلهية تصدير عام بقلم د عبد الرحمن بدوي ص ٦

الركيزة الحسية التي للفكر المجرد لتكوين المفاهيم"[1].

وإذا أدرك المغترب رأي العالم رؤية جديدة.. وشكله في تشكيل خاص به، وأصبح له موقفا من الأشياء .. ربما تكون بدايته الثورة التي" هي إحدى المواقف الفلسفية الوحيدة المتماسكة، أنها المواجهة الدائمة بين الإنسان وغموضه.. والإصرار علي شفافية ووضوح مستحيليين، وذلك الموقف يتحدى العالم من جديد في كل ثانية.. أن تلك الثورة هي يقين المصير الساحق بدون الاستسلام الذي كان يجب أن يرافق ذلك اليقين"[2] .

وإذا كان الألم الشخصي في حياة أبي العلاء أول باعث نحو الحياة الشعورية العميقة.. والتأمل الواسع.. فأننا لا يجب أن نغفل دور المجتمع في تنكية هذا الألم وإنضاجه، وفي تهيئة التنوع الثقافي والمعرفي.. أن المجتمع كما قدم الألم لأبي العلاء المعري، منحه واقعا يختلط فيه الجدل بالرواية والعربي بالأعجمي.. تختلط فيه الديانات واللغات والآداب والمعارف وكل ما يخلق حياة ثرية، إذ" قضي شاعرنا نحو النصف من عمره في القرن الرابع الهجري، والنصف الأخر في القرن الخامس، فيكون قد عاصر الثقافة الإسلامية في عنفوان نشاطها في ذلك العهد.. كان في العالم الإسلامي ثلاث حواضر كبرى: بغداد عاصمة العباسيين.. والقاهرة عاصمة الفاطميين وقرطبة عاصمة الاندلسيين.. علي أن الحركة الفكرية لم تنحصر في هذه الحواضر الثلاث- فقد نشأت- كما يخبرنا التاريخ – دول صغرى نافست هذه الدول الكبرى في العطف علي أهل الأدب والعلم.. وكانت حواضرها مراكز علمية كبرى تبذل فيها الأموال الطائلة في سبيل العلم والعلماء.. وقد حدا ذلك كثيرين إلي التنقل من مدينة إلي مدينة طلبا للدرس علي بعض الأساتذة المشهورين، أو ... انتجاعا للعلم في بعض المكاتب الكبرى.. وفيه بلغت العلوم الدخيلة من طبية وفلسفية ورياضية وطبيعية، أوجها ويكفي أن نذكر منها، من رجالها السابقين واللاحقين: الفارابي، والرازى، وابن سينا، وأخوان الصفاء، عدا من نبغ منهم في بلاد الأندلس، كذلك علم الكلام الذي بلغ أوجه في الغزالي(ولد بعد سنة من موت المعرى) ونشير إشارة خاصه إلي المذاهب المتنازعة من خوارج وشيعة، ومعتزلة، وأشعرية وصوفية، فقد كانت علي أشدها في عهد المعرى.. وما

---

(١)المعجم الفلسفي المختصر / ص ١٨، ١٩ بتصرف.
(٢)أسطورة سيزيف ص ٦٣ بتصرف

قبله"[1].

وقد أدرك أبو العلاء عصر العلماء بحق، فمن أعلام الفكر الذين توفوا قبل ولادته: الفارابي والطيب الرازي، والمؤرخ المسعودي والاصطخرى الجغرافي، وابن حوقل، كما عاصر أئمة آخرين مثل ابن سينا، والبيروني ومحمد ابن حزم.. كذلك أطلع المعرى علي آثار اسحق ابن حنين، وعلي ترجمات قسطي بن لوقا، ومؤلفات الكندي، والحلاج وابن الراوندى[2] وغير هؤلاء في كل علم.. فقد كانت " المكتبة العربية قد زخرت في عصر الترجمة الكبير، أي في القرنين السابقين بعيون التراث اليوناني والفارسي ونتيجة لفتح الثقافة العربية للثقافتين: اليونانية والفارسية ظهرت في العالم الإسلامي تيارات فكرية متضاربة، بعضها عقلاني وبعضها روماني ولكنها برغم تضاربها كانت تمثل حالة ازدهار ثقافي عظيم"[3].

وقد أضيف هذا الازدهار إلي ثراء واسع في الفرق الإسلامية والمذاهب الفكرية المنتشرة في مجتمع هذا الوقت. فنجد الصوفية والفقهية والباطنية والكلامية. والجماعات الفكرية ذات التأثير القوى كجماعة أخوان الصفا وغيرها.

وقد اختلفت هذه الفرق وهذه المذاهب فيما بينها- بالطبع في الاتجاه الفكرى.. وفي طرق الاستدلال والنتائج.. بل اختلفت أيضا في المنبع الأساسي الذي تستقي منه أصولها ويمثل المؤثر الأول عليها كذلك كان لامتزاج الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية بالفكر الإسلامي نتائج ثرية متنوعة،" وكانت لفلاسفة المسلمين طريقتان: أحدهما لم يتقيد أصحابها بدين، ولا غيره، وإنما جعلوا العقل هو المتصرف المطلق ومن رؤساء هذا الفريق: الفارابي وابن سينا، وقد شذ أهل هذا المذهب في كثير من القضايا عن سنن الإسلام. فأثبتوا كثيرا ما نفاه كحشر الاجساد، ولذلك رمي أكثرهم بالإلحاد والزندقة، والثانية: أراد أصحابها أن يوفقوا بين الدين والفلسفة.. وتكلفوا لذلك وجوها وفقوا في بعضها دون بعض آخر، ومن هذا الفريق علماء الكلام، فأنهم حاولوا ذلك في

---

(١)أنيس المقدسي/ بيئة المعرى وأثرها في شعره مجلة الهلال يونيو ١٩٣٨م ص ٩٦٤ بتصرف

(٢)د. لويس عوض/ علي هامش الغفران / كتاب الهلال. ابريل ١٩٦٦م/ ص ٨٠

(٣) د لويس عوض/ علي هامش الغفران/ كتاب الهلال ابريل ١٩٦٦م/ ص ٨٠

كثير من المسائل فأرادوا أن يسيروا الفلسفة وراء الدين، ومن رجال هذه الطريقة. الاشعرى والماتريدي، والباقلاني، والاسفراييني، ومن رجال هذا الفريق: المتصوفة.

وذكر صاحب الذكرى. أن الفلسفة الصوفية تتألف من عنصرين يونانيين أحدهما وحدة الوجود، والثاني هو الاشراق، وهذا المذهب هندى، وهذان العنصران نقلا إلي المسلمين في القرن الثالث، وأضيف إليهما شئ من ظاهر الدين، فنشأ مزاج خاص أظهر الحلاج والجنيد وغيرهما من متصوفة القرن الرابع والمتصوفة أقرب إلي الشيعة منهم إلي اهل السنة، فظهر فيهم مذهب الباطنية، وكثر تأولهم للكتاب والحديث، وانتشر مذهبهم في العامة. فأدي إلي فنون من الإباحة ومخالفة الدين.."[1].

أن عصر أبي العلاء كما ذكرنا في الفصل السابق من هذه الدراسة كان عصر ثورة عقلية وجموح فكرى، وتمرد علي كثير من المسلمات، ومن ثم إخضاع كل تقليد ومألوف للشك والبناء الجديدين.. ولعل محنة الحلاج ومحنة المعتزلة تمكنانا من أدراك حرية الفكر في هذا العصر. ومصير هذه الحرية إذا ما ارتطمت بمصالح الحكم، أو جمود الحاكم وضيق أفقه.

وجد أبو العلاء وسط هذا الضجيج، وهو الشاعر الذي خلق منه عجزه الجسدي إنسانا ذا طاقة كبيرة من العمق والتأمل والحساسية والميل إلي إخضاع الحياة للتساؤل والفكر والتحليل، فكان الامتزاج بين محنة البصر وآثارها النفسية، وبين ما زخر به مجتمع أبي العلاء من ثراء معرفي فكري.. وكانت حصيلة هذا الامتزاج أن أصبح لأبي العلاء توجها ثقافيا خاصا وانتقاء مميزا للمعارف، وتمثلا متفردا للقضايا والمواقف والرؤى.

وندهش إذ نرى كثيرا من الباحثين والدارسين يأبى إلا أن يدرج أبا العلاء- أو علي الأدق آراء أبي العلاء- تحت مذهب فكرى بعينه، أو فرقة بذاتها مما ضم هذا المجتمع. وقد استند أصحاب هذا الرأي إلي أنه " لا جرم اتصل بالفكر من اقطاره، وفعلت فيه طائفة تلك الأفكار فعلها"[2] فهناك من رأي أن الأسس التي بني عليها فكر المعرى إنما ترجع إلي أخوان الصفا، ورمزية

---

(١) محمد سليم الجندى الجامع في أخبار أبي العلاء المعرى وآثاره مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق جـ١ ص ١٥٢، ١٥٤ بتصرف

(٢) عبد الله العلايلي المعرى ذلك المجهول / ص ١٨

الباطنية الحرفية، وتأوج البحث اللغوى[1] وهناك من أشار إلي اتصال أبي العلاء بالمعتزلة، وتردده علي مجالس الحسن البصري[2] كذلك هناك من أشار إلي اتصاله بالشيعة المعتدلة عن طريق بني حمدان وأشار إلي بغضه للباطنية لغلوها في عزل العلم والعقل والاجتهاد عن الدين.[3]

طائفة أخرى من الآراء تميل إلي تأكيد الفلسفات الشرقية في فكر أبي العلاء، خاصة الفلسفة الرواقية[4] التي نادت" بترويج التأمل الهادئ لظواهر الحياة، وبالدعوة إلي الطمأنينة وعدم التأفف والتذمر وأكدت ضرورة ثبات المرء وصلابته في الدفاع عن الحقيقة، وانتصاره علي الآلام وازدرائه للملذات، ودعا فلاسفة الرواقية الرومان إلي الاهتداء بالعقل لا بالاهواء ، والابتعاد عن مظاهر التبجيل الخارجية، والاذعان للقدر[5].

ولعل النظر إلي جوهر هذه الفلسفة فقط يكاد يجزم بعدم تأثيرها في فكر أبي العلاء، هذا الجوهر هو: استقبال الحياة بهدوء والأعراض عنها باطمئنان. فقد كانت حياة أبي العلاء علي النقيض من ذلك تماما كما يبين شعره..

وغير الرواقية يري البعض أن أبا العلاء قد تأثر بالفلسفة اليونانية في" تشكيل رؤيته للفعل الإنساني"[6].

أما الطائفة الثالثة من هذه الآراء فهي تجعل لرحلة بغداد اليد الطولي في توصيل أبي العلاء بكثير من التيارات الفكرية في ذلك العصر[7] لكن رأي عميد الأدب العربي د.طه حسين يخالف هذه الآراء حين يري أن استكشاف أبي العلاء لسجنه قد تم قبل سفره لبغداد، وعلي وجه التحديد في الثلاثين من عمره، وأن تفكيره الفلسفي قد ظهر في رثائه لابيه[8].

---

(١) السابق / ص ٢٦، ٢٧، ٢٨.
(٢) د. كمال اليازجي. أبو العلاء ولزومياته. دار الجيل بيروت. لبنان ط١/ ١٩٨٨ م/ ص ٤٠، ٤١.
(٣) د. لويس عوض. علي هامش الغفران. ص ٨٧، ٨٨.
(٤) د. عبد الوهاب عزام. بين أبي العلاء والخيام. مجلة الهلال . يونيو ١٩٣٨م/ص ٨٨٨.
(٥)المعجم الفلسفي المختصر/ ص ٢٤١.
(٦) د. عبد القادر زيدان. قضايا العصر في أدب أبي العلاء. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م. ص ١٢٧.
(٧)د. حماد حسن أبو شاويش شعر أبي العلاء في الدراسات الحديثة/ ص ٣٠
(٨) د. طه حسين . مع أبي العلاء في سجنه/ ص ٥١، ٦٢

ويجمع كل هذه الطوائف من الأراء رؤية واحدة. هي أن بيئة أبي العلاء هي التي شكلت نظراته الفكرية- وتحكمت في وجودها ونوعها وبلغ إيمان أصحاب هذا الرأي برأيهم إلي حد اعتقادهم بأن أبا العلاء لو نشأ في الحجاز مثلا لاختلفت نظرته إلي الحياة.[١]

في مقابل هذا طائفة من الأراء تنكر التأثير القوي للبيئة الفكرية في حياة أبي العلاء العقلية[٢]. وتستند في إنكارها علي كثير من الأدلة. ويتوسط الطائفتين فريق" يقول بأن امتزاج الفطري والمكتسب في حياة أبي العلاء المعرى وجهه إلي التأمل الميتافيزيقي[٣].

ونزعم – كما قلنا من قبل- أن الأساس في توجه الإنسان – أي إنسان- إلي العالم المحيط به: تجربته الذاتية مع الحياة، واحتكاكه الأول بهذه الحياة الذي يحدد كيفية استقباله للموجودات المادية والمعنوية ويحدد أيضا نتائج هذا الاستقبال . ومع استمرار الحياة، وتواصلها يضاف إلي هذه التجربة المحورية في حياة الفرد، عوامل أخرى بلا شك، لكنها في الغالب لا يتم اختيارها إلا من خلال تلك التجربة المحورية وذلك الاحتكاك العميق الذي تكشف من خلاله الوجود... فتتحكم هذه التجربة- خاصة إذا كانت مريرة- في كل ما يضاف إلي الذات من خبرات وثقافة ومعرفة وتوجه عام إلي الحياة، فيكون هذا التوجه أما معضدا من وجود الأزمة وحيمنتها علي حياة الفرد، وأما متصديا لها، ومن ثم تتشكل نظرة الفرد إلي الحياة من واقع محنته هو أولا، ومن واقع ارتطامه الشديد الخصوصية بالواقع، وليس العكس.

أن أبا العرى الذي ابتلي بفقد بصره مبكرا، وواجه ذاته أول ما واجه في الحياة وتحاور معها أكثر مما تحاور مع غيرها، لن يستطيع أن يطالع النتاج الثقافي لمجتمعه أو أن يستقبل الأشياء بأي ردود للفعل إلا من خلال هذه المحنة أولا... وليس معني هذا أنه لن يقرأ أو يسمع أو يتلمس إلا ما هو متمم لبيئة كف البصر مباشرة، بل معناه أنه- بطريق غير مباشر، وعي أم لم يع- لن يستقبل ألا

---

(١)نور الدين يوسف نور الدين/ الشعراء الثلاثة دار الانصاف ص ١١٨.

(٢) شعر أبي العلاء المعرى في الدراسات الحديثة/ ص ٨٣، وكذلك ذهب إلي ذات الراي محمد فريد وجدى في / نصيب المعرى من الفلسفة للشرقية الهلاك يونيو ١٩٣٨م، ص ٨٦٦

(٣) أنيس المقدسي بيئة المعرى وأثرها في شعره الهلال يونيو ١٩٣٨م، ص ٩٦٤

ما يناسب هذه المحنة، ولن يقر داخله إلا ما كان يبحث هو عنه، وأبو العلاء لم يكن يبحث إلا عن تفسير لمحنة فقد البصر وألا عن حكمة وجوده علي هذه الشاكلة، وحكمة وجود كل نقصان مهما تضاءل أو تعاظم...

لذلك فهو- بالطبع- غير منعزل عن اتجاهات عصره الأدبية والفكرية والدينية وغيرها، بل لقد مارس كل هذا واختلط به، وأخذ منه ما يوافقه ثم مزجه ببصمته الخاصة ومعاناته الفردية وخلق من الجميع توجها علائيا مميزا إلي كل الأشياء والقضايا.

فأبو العلاء- في زعمنا- لم ينتهج أي سلوك فكرى إلا سلوك محنة فقد البصر، وما يترتب عليها من عزلة نفسية، دافعة إلي التأمل،نقول هذا الزعم علي الرغم من تشابه بعض الظاهر من آرائه مع بعض اتجاهات المجتمع السائدة، لأن هذا التشابه جزئي ظاهرى متولد من قبيل تناسخ الفكر البشرى في مسيرته، ومن أن تاريخ هذا الفكر لا يتغير في الجوهر، بل يتغير ثوبه الخارجي فقط.. وهو أيضا تشابه من قبيل ما يقوله المثل الفرنسي" ما الليث إلا عدة خراف مهضومة".

وإذا كان عصر أبي العلاء بكل ما فيه من ثراء واضطراب مهيئا للفكر الفلسفي والتأمل الوجودي، والإحساس" بصدأ العيش"[1] فهو لم يهئ كل من فيه لذلك،ولم يكن كل العصر وكل من فيه مغتربين كأبي العلاء- أو كغيره من أصحاب المعاناة والرؤى والفكر- لأنه لابد من بيئة داخلية قابلة للعمق والتأثر... فكثير من الناس يعيشون الألفة والاعتياد في الحياة، ويقنعون بالمألوف" أن ما يعمله الإنسان، ويسعي إليه، يحققه ويناله بجهوده.. وهلدرلن يقول مشيرا إلي التباين الصارخ ومع ذلك فكل أولئك لا شك لا شأن له بمادية مقامه علي هذه الأرض، وكل أولئك لا يصل إلي صميم الوجود الإنساني:" فهذا الوجود في صميمه شعري" ولكن ما نعنيه بالشعر الآن إنما هو التسمية المنشئة للآلهة، مادية الأشياء" وأن نعاني مجاورة .الأشياء في لبابها، وماهيتها"[2] ولا يتأتي هذا إلا من خلال مواجهة حادة مع الحياة.

وقد كان فقد البصر في حياة أبي العلاء المعرى هو تلك المواجهة

---

(١) أدونيس متدمة للشعر العربي دار العودة. بيروت ط٤ ١٩٨٣م ص ٣٩.
(٢) مارتن هيدجر/في للفلسفة والشعر/ص ١/ ١٩٦٣م/ص ١٠

الحادة، كان ارتطاما محوريا بمعني الوجود ذاته، لذلك كان أول هم ميتافيزيقي يتولد من تلك المحنة هو هم البحث عن الحقيقة الذي نعتبره أول محور موضوعي من محاور قضايا الاغتراب الميتافيزيقي في شعر المعري

البحث عن الحقيقة:

وقد تطور هذا الهم- أو تلك القضية الميتافيزيقية- في فكر أبي العلاء فلم يعد مقتصرا علي البحث عن حقيقة فقد البصر وأسبابه، فقط بل تسامق ليختلط بهموم الإنسان العامة.. وفلسفة وجوده في الحياة.

فيتساءل أبو العلاء عن أسرار المجئ والرحيل، أشجان العناء الإنساني المتواصل، أحاسيس الإنسان وعقله، ماهية الخيوط التي تربط بينه وبين نفسه، وبينه والكائنات الأخرى، بل بينه والمطلق أيضا. ولأن الشاعر هو" من يشعر بجوهر الأشياء" فقد تجاوز اغتراب أبي العلاء أطر المألوف، وسطح الأشياء إلي الجوهر، وكانت الحقيقة أولي قضاياه الميتافيزيقية وفاتحة همومه الفكرية.

لعلّ نجوم الليل تعمل فكرها لتعلم سرا، فالعيون سواهد[1]

تخطت عين أبي العلاء مصيرها الفردي المخفق لتبحث في الالهيات[2] مصدر النفس، الزمان والمكان، أصل الكائنات، سر الناموس الكوني، وكل ما يتعلق بمصير الكائن الحي في الوجود.

حاول أبو العلاء أن يخضع هذه المسائل للعقل البشرى والقدرة البشرية، لكنه ارتطم بحاجز المحدودية: محدودية العقل الإنساني والقدرة الإنسانية جمعاء، لأن هذه المعاني ليست ثابتة، ولأن الحقائق العظيمة دائما تتارجح بين الشك واليقين، ولأنه من الصعب علي الإنسان أن يجد حقيقة مطلقة- عدا وجود الله سبحانه- يستطيع أن يتلمسها بأصابعه الصغيرة المرتعشة، يقول المعري مصورا اضطراب فكره في حقيقة الوجود :

ويعترى النفس إنكار ومعرفة وكل معني له نفي وإيجاب[3]

---

(١) ل١/ ٢٢٨.

(٢) أبو العلاء ولزومياته وقد حصر المؤلف هذه الآلهيات التي وجدت في شعر ابي العلاء المعرى في صفحات كتابه من ص ٥٨١- ٦٣٠.

(٣) ل١/ ٧٨

كان صدام أبي العلاء مع هذه المسائل هو أنه أصر علي بشرية الأشياء والمعاني. والانتحار العقلي ليس إلا محاولة تقليص الأشياء إلي بشريتنا[1] او الارتفاع الوهمي إلي أبراجها لملامسة أسرارها.

وقد فات المغترب أن الحقائق في عملية المعرفة مطلقة ونسبية، وأن العالم حوله غاية في التعقيد والنمو والاتساع[2] بما يتعذر معه المعرفة المطلقة التامة.

لذلك كله لم يكن القول باللا أدرية[3] ليكفي أبا العلاء كنتيجة من نتائج الارتطام الفاشل بالحقائق المطلقة، بل كانت النتيجة الوحيدة الطبيعية هي أن يطبق علي أبي العلاء ظلام كثيف، هذا الظلام هو ذات البينة التي ألمته، وهي الرحم بالنسبة له في ذات الوقت.. أن اظلام عينه جعل من كل ظلام لغة تعبير مناسبة عن سقوطه وعجزه.. فقد رافقه أذن هذا الظلام في تجربته الحياتية الخاصة، وفي رؤاه الميتافيزيقية.

عللاني ، فإن بيض الأماني فنيت ، والظلام ليس بفان[4].

أن طلب الحقيقة في الظلام يجعلها أكثر استعصاء.. وقد طلب أبو العلاء حقائق الوجود انطلاقا من إحساسه الحاد بفقد البصر، من واقع ألم شخصي لا من واقع مجرد ، لذلك صعب عليه كل شئ:

وكم طلبت أمورا لست مدركها تبارك الله من أغراك بالطلب[5]

ويري أبو العلاء الظلام شاملا تاريخ البشرية كله، هذا التاريخ الذي يبدو وكأنه رحلة في قفر لا دليل به[6] وأبو العلاء لم يتيقن إلا من حقيقتين اثنتين فقط: وجود الله[7] وموته الشخصي الذي هو موت الإنسان في عمومه، وهاتان الحقيقتان يجمعهما أمر واحد: تناهي البشرية وضعفها العظيم:

---

(١)أسطورة سيزيف/ ص ٢٦.
(٢)المعجم الفلسفي المختصر/ ص ٢٠٠، ٢٠١.
(٣)أبو العلاء ولزومياته / ص ٥٨١، ٥٨٢
(٤)أبو العلاء المعرى/ ديوان سقط الزند/ طبعة بيروت / ص ٩٤
(٥) ل١/ ص ١٢٠..
(٦) ل١/ ص ١٥٣.
(٧) د صالح البيظي. الفكرة والفن في شعر أبي العلاء المعرى" رؤية نقدية عصرية للتراث" دار المعارف ١٩٨١ ١٨٣

سألت عن الحقائق كل يوم فـما ألفيت إلا حرف جحد
سوى أني أزول بغير شك ففي أي البلاد يكون لحدى[1]

لذلك كله انتهت رحلة أبي العلاء- التأملية- في البحث عن حقائق الكون والمصير الإنساني إلي نفي المعرفة الإنسانية والاعتراف بأن الحقيقة عصية:

سألتموني فأعيتني اجابتكم من ادّعي أنه دار فقد كذبا[2]

وهذه اللا ادرية تجعلنا نزعم أن أبا العلاء يختلف تماما مع المعتزلة في جوهر الفكر هذا بالنسبة لمن يدي تشبهه بهم- فالمعتزلة يمتلكون ثقة كاملة في قدرة العقل العالية[3] وإمكانية إخضاع الحياة كلها لتلك القدرة، بينما انتهي أبو العلاء إلي أن محنة الإنسان الأساسية هي فكره الذي يورده موارد العجز لا الاقتدار:

وتفكر الإنسان يثني غربه ويردّ جامحه إلي الاقصار[4]

ولا نعتقد أن محنة أبي العلاء أنه" لم يخضع في فهمه للحياة لأصل ثابت من أصول المعرفة"[5] بل نعتقد أن محنته الحقيقية هي الاستسلام إلي عجز العقل ومحدوديته، والإحساس العظيم بتفاهة حجم الإنسان، وثقل معاناته، مما يوسع المسافة بينه وبين الحقائق...

لذلك كان شعر أبي العلاء- وأدبه - في معظمه تنويعات علي هذه القضية، لأن" العمل الفني يولد من رفض الذكاء أن يعلل الملموس تعليلا عقليا".[6] وقد أدرك أبو العلاء جناية المعرفة علي الإنسان، أدرك اظلامها عليه وإذلالها له، فبثها ظمأه مرارا:

---

(١) ل١/ ص ٢٧٨.
(٢) ل١/ ص ٩٤
(٣) قضايا العصر/ ص ٣٢٧، ٣٢٨.
(٤) ل١/ ص ٤١٦: أثبت محقق الديوان لفظ " غربة " بهذه الهيئة، ونعتقد أنها غربه أي دلوه ليستقيم معني الشطر أكثر ويتناسب مع البيئة اللغوية له.
(٥) المعرى ذلك المجهول/ ص ١١٧، ١١٨.
(٦) أسطورة سيزيف/ ص ١١٢

أرسلت غربك تبغي الماء مجتهدا وما علي الغرب لمّا خانك المرس[1]

وليس الماء سوى الأمان والاطمئنان المتحققين بالمعرفة واليقين... فظماً أبي العلاء ظمأ شديد إلي حياة لم يعشها، وإلي حياة لا يفهمها.. ظمأ وطراد متواصل لحقيقة لا تصاد.[2]

ونعرض في هذا السياق رأي د. عز الدين إسماعيل الذي يري أن الشعر العربي لم يعرف الحزن الفلسفي إلا في قصائده الحديثة والمعاصرة[3]... وأنه لم يدرك الحزن" كظاهرة ترتكز علي مواقف ذات فلسفات محددة إلا منذ تجارب الشعر الجديد".[4]

ولأننا لا نستطيع بحال أن نتعمق في هذا المجال في دراسة الحزن عند شعراء العصر العباسي نكتفي بالقول بأننا نطمئن إلي أن أبا العلاء المعرى كان أبرز شعراء العصر العباسي في احتواء شعره علي مثل هذا اللون من الحزن.. حزن خلقته نظرة خاصة إلي الوجود، ولم تخلقه فلسفة بعينها في عصره... فإذا كانت النظرة المتجانسة إلي الأشياء، والموقف الأصيل من الموجودات والشعور الواحد بالقضايا- إذا كان هذا كله يشكل فكرا كاملا أو مذهبا واتجاها، فأننا نعتقد أن حزن أبي العلاء كان حزنا فكريا قائما علي إدراك حاد لمأساة الإنسان، وفجيعة مصيره في مواجهة المجهول والفناء...كان حزنا وهما يصفه المعري بأنه فوق طاقة القصيد:

فـاقتنع بـالروىّ والـوزن منـي فهمـــومي ثقيلـــة الأوزان
من صروف، ملكن نطقي وفكرى فهـن قيـد الفـؤاد قيـد اللـسان[5]

وهو لا يفتأ يتأوه من تلك الأسرار الواقع تحت وطأتها[6] رائيا أنه " لو كان السجل الوحيد ذو المغزى للفكر البشرى سيكتب، فأنه يجب أن يكون تاريخ

---

(١) ل٢/ص ٢١ الغرب: الدلو المرس: الحمل.
(٢) قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعرى/ص ١١٣، ٣١٤، ٣٢٠.
(٣) د. عز الدين إسماعيل. الشعر العربي المعاصر/ص ٣٥٢.
(٤) د. السعيد الورقي. لغة الشعر العربي الحديث: مقوماتها الفنية وطاقاتها الابداعية ط٢/ ١٩٨٣م دار المعارف/ص ٢٩٧، ٢٩٨.
(٥) شروح سقط الزند ق ١/ ٤٦٠، ٤٦١.
(٦) ل٢/ص ٢٨١.

تاريخ أسفه المتعاقب، ولا قدرته".[1]، معترفا بأنه" ليست هنالك سعادة إذا لم يكن في وسعي أن أعرف".[2] فالحزن العلائي هنا وليد المعرفة المستحيلة بكل الحقائق وأولها حقيقة الذات:

إذا أعمل الفكر الفتي جعل الغني من المال فقرا والسرور به حزنا[3]

وهنا يمزج أبو العلاء بين حزنه الفلسفي وحزنه الخاص، وجيعته الخاصة، بين عماه المادى وعماه الفكرى، عماه الفردي، وعمي الإنسانية جمعاء... فتكون العين رمزا لافتقاد الإنسان مفاتيح فهم وجوده... يكون العماء رمزا للسير في مهامه الفكر، بعد أن عجز عن السير فوق دروب الأرض المادية.. وكان أبا للعلاء لم يجد إلا العين وإظلام العين رمزا لوصف هذا الموقف: وكان العماء هو المعرفة الوحيدة التي امتلكها واستطاع التعبير بها عن قضاياه.

كيف تهديك للخفيات عين لا ترى الآل في مهامه ملس[4]

وكلا نوعي العماء كان سجنا لأبي العلاء، وقد " ألف الرجل هذين السجنين أشد الالف، وضاق بهما أشد الضيق، ولا تعجب لهذا التناقض، فهو قوام حياة أبي العلاء".[5] وقد أكل منه سجناه، حتى انتهي- كما سنرى- إلي " رفض صريح لمطلق الوجود".[6]

قضية الشر في شعر أبي العلاء المعري:

أن وجود خلل ما في حياة الإنسان يعطل القوى الطبيعية للفكر والإحساس فيه، أو علي أقل فرض يؤثر في كفاءة استقبال هذه القوى للأمور، وطاقتها علي استيعابها. وقد اتفق علماء النفس والفلسفة علي أن الشر إذا كان اتجاها سلوكيا في حياة إنسان ما، فهو أثر للفشل الحياتي في تحقيق الذات، وإعاقة النمو[7]، لأن الخير حليف البناء والإنتاج والعمل علي رقي الحياة، في

---

(١) أسطورة سيزيف/ص ٢٧.
(٢) السابق/ص ٢٩، ٣٠.
(٣) ل٢/ص ٣٥٠
(٤) ل٢/ص ٥٢.
(٥) مع أبي العلاء في سجنه/ص ٧٧
(٦) د صالح البيظي الفكر والقي/ص ١٦٣.
(٧) د زكريا ابراهيم. مشكلة الخلقية مكتبة مصر ط١/ ١٩٦٩/ص ٢٣٣، ٢٣٤

حين أن الشر حليف الهدم والتحطيم والعمل علي اعاقة الحياة" ودراما الحياة الخلقية لابد من أن ترتبط ارتباطا وثيقا بهذا الصراع المستمر الجاري علي قدم وساق بين قوى الخير البناءة، وقوى الشر الهدامة"[1]

الشر في حياة أبي العلاء المعري كان نتيجة تفسيره للحياة، لأن فقد البصر كان أول شر- في اعتقاده - يصطدم به ويعجز عن تفسيره والتكيف معه، كان ذلك الخلل الذي سيطر علي قواه، وصبغها بصبغته، لذلك حينما نظر إلي المجتمع، ووجده علي ما هو عليه من فوضي زاد اعتقاده بأن الشر أصل في خلق البشرية، بل الكون كله:

أتغضب أن تدعي لئيما مذمما وحسبك لؤما أن والدك الدهر[2]

هذا الشر في اعتقاده توصف به عموم الكائنات" وكل قوى سلط علي ما هو أضعف منه، فالعالم سلسلة مظالم، ومجموعة مهازل".[3] حتى عالم الحيوان تتحكم القوة والأطماع[4] فيه.

الدهر في عين أبي العلاء شر كله، وجنبات الحياة فساد وألم وخلل:

مهلا، أمن وبأ، فررت، وهل تري في الدهر إلا منزلا موبوءا[5]

لذلك كله لا ينتفي الشر عن الإنسان[6]، بل أنه أن امتزج بالخير يتغلب عليه[7]. ويتساءل أبو العلاء: إذا كان الشر مبررا حين يأتي من قبل الكائنات المخلوقة، فما منطقه حين تتسبب فيه قوة أعظم، ما منطقه حين تصيب هذه القوة حياة الإنسان ومظاهر الكون العامرة بخلل ما، أو دمار، ونقصان؟ لماذا تعاني الحياة من الشر في الأصل؟ لماذا لا يرفع الله الخلل عنها؟.... أدمت هذه التساؤلات قوى أبي العلاء ، لأنه لم يبحثها انطلاقا من الفكر الخالص، بل انطلاقا من محنته" لم يبحثها بحثا فلسفيا عقليا" ونضيف انه لم يصبغها

---

(١) السابق/ص ٢٣٢، ٢٣٣.
(٢) ل١/ ص ٣٠١
(٣) أحمد أمين/ نظرة أبي العلاء إلي العالم مجلة الهلال مج ٤٦ يونيو ١٩٣٨م/ص ٨٦٢، ٨٦٣.
(٤) أبو العلاء المعرى رسالة الهناء ط/ص ٦٤، ٦٥
(٥) ل١/ص ٥٢.
(٦) ل١/ص ٧٧ وذات المعني ل١/ص ٢٦٥
(٧) ل٢/ص ٢٤١.

بايمانه.[1]

أبو العلاء لم يكن يريد التنظير لفلسفة ما، أو السبق في مجال فكرى بعينه، بل كان يريد الاطمئنان والثبات والثقة النفسية، وكان افتقاده كل هؤلاء داعيه لأن تكون هذه القضايا في شعره ذات صبغة انفعالية قائمة علي التوتر والألم والاضطراب.

ونورد نصا لأبي العلاء المعرى يتساءل فيه عن حكمة الشر في الوجود، وكنه هذا الشر.. هذا النص لا نخرج منه إلا بأن أبا العلاء كان مطمئنا إلي رسوخ الشر في الحياة، وإلي أنه قوة غامضة.. وهو بهذا الاعتقاد يهدهد نفسه، ويؤكد لها أن عجزها المادى المتمثل في فقد البصر ونتائجه لم يكن عجزا لنقصان فيها هي، بل لقوى مجهولة لا يمكن صراعها، وأن أمكن الصراع، لا تمكن الغلبة يقول:

" إن قائلا من البشر لو قال: إذا بنينا للقضية المركبة من المسند، والمسند إليه، ولهما واسطتان، إحداهما نافية، والأخرى استثنائية، فقلنا: الله لا يفعل إلا خيرا، أفهذه القضية كاذبة أم صادقة؟ فإن قيل أنها صادقة رأينا الشرور غوالب، والخيرات الملتمسة قوالب، فعلمنا أن ذلك سر خفي، لا يشعر به إلا حفي، وفي الكتاب للكريم" وأن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وأن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك، قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا". النساء ٧٨، فإن قال القائل: قد روي أن النبي كان إذا أراد السفر قال: اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال، أفهذه الأشياء التي تعوذ منها خيرات أم شرور، لا يكمل بها السرور ؟

فأن قال: هي مخوفة منكرة، فقد أبطل القضية التي هي متقدمة، لأنها لما سلف طرود معدمة.. وأن قال: القضية المذكورة لا تصح، فالسائل بسيئ الأدب يلح.. فإن قال: القضية منعكسة، وهي بعد بحث منتكسة ... فقد لزمه أن يقول: أن الله سبحانه يفعل الخير والشر، فإن أبي ذلك رجع إلي ما يقول المجوس من أن للعالم خالقين أحدهما مزدان وهو فاعل الخير، والآخر أهرمن وهو فاعل الشر، ومعاذ الله أن نقول هذه المقالة، بل نكرم شرعنا، ونبسط في

---

(١) شعر أبي العلاء في الدراسات الحديثة/ ص ١١٤

تباعه نرعنا".[1]

أن محصلة ما قال أبو العلاء في النص السابق- أنه في حيرة شديدة وتلك الحيرة لا تحول دون اطمئنانه إلي مسئولية الله سبحانه وتعالي عن الشر والخير معا، دليل ذلك أنه حين استشهد بآية من القرآن الكريم، لم يستشهد ألا بآية يوافق ظاهرها اعتقاده بالجبر بينما يزخر القرآن الكريم بآيات أخرى يوافق ظاهرها- وتأويلها- خلاف هذا الاعتقاد. وأنه قد انطلق إلي الاهتمام بالقضايا الميتافيزيقية من هذه القضية.

وقد توقف أبو العلاء عند حكمة خلق الله لأقوام مثل عاد وثمود، "وهو تعالي عليم بما سيفعلون" فكان ينبغي ألا يخلقهم، لأن خلقهم أداهم إلي العذاب والتجرع من الصاب، وأن كان لا يعلم بما يصيرون إليه، فهو كغيره من الفاعلين، وقد يربي الرجل ولدا فيكون عاقا، أو يملك عبدا فيخرج معاندا مشاقا، ومعاذ الله أن نقول ذلك،.بل نسلم، ونتلو الآية" من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا"[2] وتسليم أبي العلاء في هذا السياق كتسليمه في كل أموره: استسلام لا اطمئنان... استسلام عجز وقهر مكظوم ارتطم بالمحاذير الدينية فحاول التلطف في لغته وحاول أن يجد صوابه.

أن هم أبي العلاء الأعظم في قضية الشر أن ينزع تبعته من الإنسان، وأن يثبت أن الله تعالي مادام محيطا بعلمه وقدرته فهو مسئول مسئولية كاملة عن الخير والشر في الوجود، حتى لو تعارض هذا الإثبات مع بعض الصفات الآلهية التي وصف بها الله نفسه: " قد ذكرت الأنبياء- عليهم السلام- أن البارئ – جلت قدرته – رؤوف رحيم.. ونشاهد ما علي غير ذلك دليل، لأنه لو رأف ببني آدم لوجب أن يرأف بغيرهم من أصناف الحيوان الذي يجد الألم بأدنى شئ، ولم يخص الأنس بذلك، وهم الذين يجنون الكبائر، ويقدمون علي إتيان الذنوب"[3].

فأبو العلاء انطلق إلي قضية الشر- وغيرها من القضايا الميتافيزيقية- من وجعه الشخصي، ومعاناته للشر- فقد البصر أولا- الذي أعاقه عن الحياة، وهذا الحديث عن الشر- في شعره ونثره- لا يتعارض مع صدق حسه الديني- الذي فصلنا بعض نقاطه في الفصل السابق- وكأن إيمانه " إذا إيمان" بالشقاء

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري/ جـ١/ تحقيق إحسان عباس / ص ١٠٥- ١٠٦
(٢) رسائل أبي العلاء/ ص ١١٣
(٣) السابق/ ص ١١٠.

والنعمي، شقاؤه هو ونعمي الغير، وذلك لا ريب ايمان سلبي خليق بأن يحطم النفس، لا أن يقودها إلي الب ن، ومتي ولد الألم الإيمان، والألم سخط وحيرة وتبلبل، وضجر"[1].

أن أزمة أبي العلاء في كل قضاياه هي أنه افتقد الحياة الصحيحة، التي ظن أنها يوتوبيا، أو حلما متكاملا، وقد افتقد اليوتوبيا[2] في الحياة كلها فأزمته لم تكن افتقادا للأيمان، أو عدم إشباع للعاطفة الدينية[3] بل كانت أزمة عاجز شاعر محتدم الأطراف، يقوده عجزه- لا عقله أو تأمله الصافي المحض- لذا لا نعجب إذا كان محور شعره ما يراه في الكون من نواقص وتشوهات،" فإن وجد الرذيلة أو القبح أو الشر أوفر حظا في التمكين من الإبداع فلا جناح عليه مطلقا في أن يتحذها بل ان يتخذها وحدها موضوعات لخلقه الشعرى، بل الآثم كل الآثم في الانصراف عن هذه الأشياء إلي اضدادها استرضاء وتملقا لاهواء الأخلاق، أو ما إليهما من الأوضاع في دنيا الحياة، بل نحن نذهب إلي أبعد من هذا فنقرر وفقا للمذهب الوجودي أن هذه المعاني هي الأحرى بأن تكون موضوعات للشعر الوجودي لأنها هي التي تعبر عن سقوط الآنية، هذا السقوط الذي يولد القلق قلق الوجودي علي نفسه وهو القلق الذي قلنا عنه أنه المحرك الأكبر للشعر الوجودي"[4] فهذه الشرور في عين الوجودي المغترب" أدل علي حقيقة الوجود"[5] وحنا يتشابه أبو العلاء مع الوجودية في هذه النظرة.

وقد انعدمت ثقة أبي العلاء في أصول الأشياء كلها[6] وفي منبت الحياة ذاته، فتصاعدت سخريته لاذعة آسفة لوجود الخير، دهشة منه وضعف تصديق:

---

(١) د. محمد مندور في الميزان الجديد. ص ١٤٦.
(٢) د. صلاح مصيلحي. عقيدة ابي العلاء. ص ١٧٨٣
(٣) محمد زكي العشماوي الأدب وقيم الحياة المعاصرة دار النهضة العربية/ بيروت ١٩٨٠م/ ص ٥٩
(٤) د. عبد الرحمن بدوي الإنسانية والوجودية في الفكر العربي/ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧م ص ٣٨، ٣٩ بتصرف يسير
(٥) د عبد الرحمن بدوي الإنسانية والوجودية في الفكر العربي/ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧م ص ٣٨، ٣٩ بتصرف يسير
(٦) ل١/ ص ٥٨

وقد أسفت لخير... إذ علمت به وما أسفت عليه كيف لم يدم[1]

حين يلتقط أبو العلاء انفاسه- وهذا نادر- من ألمه الشخصي، ويرتكن إلي ما قرأ ودرس وشاهد في الحياة من اتساق وحكمة في خلق الله، تعتدل أمامه الأمور، وينساب أمامه نهر وادع من المنطق والامتلاء في هدوء وامتنان... وحين يستبد به ألمه- وهذا هو الغالب- يصبغ الأمور بصبغة هذا الألم، فيراها عارية من المنطق ملأي بالفوضى، فيصخب إلي حد المجادلة في العدل الإلهي والرحمة الإلهية، بل والحكمة الإلهية أيضا.. وهذا هو مدخله إلي الإيمان بالجبر وهو القضية الميتافيزيقية الثالثة في شعره، وهذا أيضا مدخل مجتمعه إلي اتهامه بالزندقة أو رقة الدين، أو هو عامل من عوامل هذا الاتهام.

وقبل أن نقف عند ملامح هذه القضية في شعر أبي العلاء.. نمر سريعا بأهم هذه الملامح في بيئة الفكر العربي التي عايشها أبو العلاء المعرى، أو التي وصلت ثمارها إليه.

والحرية هي ضد الجبر بحسب معناها الاشتقاقي هي عبارة عن انعدام القسر الخارجي، والإنسان الحر بهذا المعني، هو من لم يكن عبدا أو أسيرا، ومن هنا فقد اصطلح التقليد الفلسفي علي تعريف الحرية بأنها اختيار الفعل عن روية، مع استطاعة عدم لختياره، أو استطاعة اختيار ضده".[2]

ولدهشتنا نجد أن غالبية الفلسفات لا تؤمن بوجود الحرية بهذا المعني إطلاقا، لأن تحقيقه بهذه الصورة المثالية لا يتأتى للإنسان: " حريتي ليست قوة معجزة لا تخضع لأي قانون، بل هي قدرة محدودة، تؤثر فيها قوى مديدة: بعضها مصدره ذاتي نفسها، وبعضها مصدره وجودي الخاص الذي يحد من دائرة نشاطها، وبعضها مبعثه العالم الخارجي الذي تعيش فيه، وبعضها مرجعه إلي الضرورات التي ترين عليها، والقيم التي تجتنبها، أو تدفعها إلي العمل".[3]

هذه الحواجز التي تقف بين الأنا، والحرية المطلقة تشكل عدة مذاهب أو نظرياته فلسفية في هذه القضية، فهناك الحتمية أو " التعيين deteminism من اللاتينية Determinor .. تقول بالترابط القانوني الشامل بين الظواهر، أي

---

(١) ل٢/ ٣١١

(٢) د. زكريا ابراهيم. مشكلة الحرية. مكتبة مصر ص ١٢

(٣) السابق / ص ١٩٧، ١٩٨

تري ان كل ظاهره إنما ترتبط بما حدث في الماضي من ظواهر، وتكون مشروطة بها، ولكن الفلاسفة المتبنين للحتمية يختلفون فيما بينهم حول طبيعة العمليات الكامنة وراء ارتباط الظواهر، فالقائلون منهم بالعناية الالهية يرون أن الارتباط القانوني بين كافة الظواهر في الزمان مرسوم من قبل الإلة أو القدر أما الماديون فيذهبون إلي أن ارتباط الظواهر يعود إلي عمليات مادية" (١)

وفي الحالتين يسير الكون وفق خطة دقيقة أما الحتمية اللاهوتية فهي" كثيرا ما تستحيل إلي جبرية تقول بالقضاء والقدر Fatalisme إذ أن مجرد وجود الله يستتبعه بالضرورة أن يكون مصير الإنسان محددا تحديدا سابقا، بغض النظر عما سوف تتجه إليه إرادة الإنسان" وهذا ما تعبر عنه الجهمية بقولها:

" أن الإنسان ليس يقدر علي كل شئ، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا اختيار، وإنما يخلق الله الأفعال فيه علي حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازا كما تنسب إليه الجمادات، كما يقال أثمرت الشجرة، وجرى الماء، إلي غير ذلك" (٢)

وبعد، تلك الضرورات التي تحد من حرية الذات- بعضها- مصدره الذات نفسها، فهناك أذن حتمية سيكولوجية Determinisme Psycholoque. " مؤداها أن كل نشاطنا الإرادي متوقف علي حالاتنا النفسية كالتصورات والأفكار" (٣)

وشبيه بهذا المذهب- أو ناتج عنه- القول بالجبر.. وقد ارتكن معظم القائلين به إلي أن " الفعل قد جعل لقياس كل ما هو " ضروري" ولهذا فقد اصطدم معارضو الحرية بهذه القضية المنطقية الهامة.. إلا وهي: أن الفعل الحر غير معقول، ومن ثم فهو غير ممكن، وأذن فانه غير موجود". بما يفضي إلي القول بأن " فكرة الإمكان نفسها هي من صنع الجهالة الإنسانية، لأن الضرورة هي التي تتحكم في مصير العالم".(٤)

والقائلون بالجبرية من المسلمين لا يكادون يختلفون عن القائلين

---

(١) المعجم الفلسفي المختصر/ ص ١٨٠
(٢) د. زكريا إبراهيم. مشكلة الحرية ص ١٢٥، ١٢٦
(٣) السابق / ص ٩٧
(٤) مشكلة الحرية/ ص ١٦٨

بالحتمية إلا في مصدر القوى الخارجي الذي ينسابون إليه الفعل فقط فالجبرية" تنفي قيمة نشاط الناس الحر كأداة لتحقيق الضرورة الموضوعية، وعلي الأغلب كانت الجبرية في التاريخ تعكس أمزجة الطبقات والفئات الاجتماعية التي لا ترعي آفاق التقدم، وتولد- علي الأغلب- أمزجة الخمول والسلبية.[1]

وهذا ما فعله أبو العلاء حين ارتكن إلي القول بالجبر وما يشبهه، فاستسلم إلي عزلة قاتلة مكللة بالإيمان بلا مسئولية الإنسان عن فعله أو عن قدره عامة.

وقد ناهضت المعتزلة مذهب الجبرية في الإسلام.. لأنها قدست فعل الإنسان الحر، فهم" لا يتصورون أن يكون الإنسان مطبوعا علي أفعاله بحيث لا يكون منه إلا جنس واحد من الأفعال كأنما هو مادة جامدة ذات ماهية ثابتة".[2]

وقامت في ساحة الفكر الإسلامي معارك فكرية بين المعتزلة وخصومها، وفند كل حججه[3] بما أثري البيئة الثقافية – والبيئة الدينية بالطبع- .. وفتح المجال واسعا لإعمال العقل.

كذلك ظهرت محاولات للتوفيق بين الطريقتين، وكان هدف هذه المحاولات الحفاظ علي جوهرى القضية: إثبات العدل الألهي، ومن ثم استحقاق الإنسان للثواب والعقاب، الجوهر الثاني: إثبات القدرة الألهية بما ينفي عن الإنسان المسئولية المطلقة عن فعله فظهرت الأشعرية، وخرج ابن رشد أيضا ليقول" أن الله قد خلق لنا قوى نقدر بها أن نكتسب أشياء هي عبارة عن أضداد، ولكن اكتساب، تلك الأشياء لا يتحقق لنا إلا بمواتاة أسباب سخرها الله لنا من خارج، فالأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرين معا." وهو قول لابد أن ينتهي إلي راي الجبرية[4] حيث رهن ابن رشد الإرادة بأسباب خارجية تتحكم في تيسيرها قوى غير الذات.

وفي هذا المضمار لا ننسي الصوفية الإسلامية التي تميزت برؤيتها الخاصة للحرية، حيث اعتقدت أنه لا حرية للذات إلا في توحدها مع الذات

---

(١)المعجم الفلسفي المختصر/ص ١٧١ بتصرف.
(٢)مشكلة الحرية/ص ١٢٧، ١٢٨ بتصرف.
(٣)السابق ١٢٧، ١٢٨.
(٤) مشكلة الحرية / ص ١٢٨، ١٢٩.

العليا، وانصهارها فيها، وهو طريق ممتع للوصول إلي الحقيقة[1] عند رجال الصوفية.

تلك هي البيئة الفكرية التي طالعها أبو العلاء المعرى، سواء ما كان منها معاصرا له، أو سابقا عليه، بما سهل علي كثير من الأراء التي[2] تناولته أن ترجع قوله في الجبر إلي ناحية فكرية بعينها من نواحي هذه البيئة.

وككل قضايا أبي العلاء المعرى- وقضايا كل إنسان- ينبع الموقف من الذات أولا قبل أن يتأثر بالمناخ المحيط به، فتأثير هذه الفلسفات والمذاهب أو غيرها ضعيف بمفرده إذا لم يلمس بيئة خصبة مواتية فهو يتحول حين يجد مثل هذه البيئة، يتحول من فكر مجرد إلي موقف شامل من الحياة.

وقد كان من الطبيعي لأبي العلاء أن يتساءل عن دوره أو مسئوليته في فقده البصر- كان ذلك من الطبيعي- لأن تلك العاهة أو تلك المحنة شكلته" ف نحن هنا بأزاء ذات مهمومة بوجودها، ولذا فهي تضع نفسها موضع. السؤال، متسائلة عن إمكانية حريتها." [3] خاصة ولأن المغترب المهموم بالقضايا الميتافيزيقية يهمه من الدرجة الأولي أن يتسق مع الكون في وحدة مفهومة وعلاقة واضحة بلا التواء، فالحرية" لها صلتها الواضحة بمشاكل ما بعد الطبيعة".[4]

ولأن اللزوميات- زمنيا وفنيا- تعتبر بحق مرحلة مواجهة الذات، واستخراج أسرارها، فأننا نري فيها ميلا حادا إلي الجبرية، لا يشوبه الاعتدال:

أنا في إسار الدهر لست بمطلق أبدا ، فأسر لخا الطلاقة أو سر[5].

ولأن فقد البصر هو دافع أبي العلاء إلي القول بالجبر في رأينا ، فإن

---

(١) قضايا العصر في أدب أبي العلاء/ ص ١٠٥.
(٢) ذهب إلي هذه الأراء د. طه حسين في الهلال عدد ١٩٣٨م/ ص ٩٧ وكذلك في كتابه مع أبي للعلاء ص ٧٢، ٧٣، وكذلك صاحب الفكر والفن ص ١١٧، وصاحب" علي هامش الغفران ص ١٠٤، ١٠٥، وصاحب عقيدة أبي العلاء ص ٨٩، وصاحب قضايا العصر ص ٣٤٨، ٢٠، ١٣٣ وغيرها وصاحب أبو العلاء ولزومياته ٥٩٦، ٥٩٧ وصاحب المعرى ذلك المجهول/ ص ١٧٨، ١٧٧.
(٣) مشكلة الحرية/ ص ٢٣.
(٤) السابق / ص ٥
(٥) ل ١ / ص ٤٠٨.

هذا القول بالجبر مرتبط أشد الارتباط بمشكلة الشر في العالم" يؤمن بوجود الله القوي القوي، المسئول عن الشر، وفي ذات الوقت هو لا يري أية إمكانية لحرية الإنسان..! لذلك يكثر في شعره لفظ القدر والدهر والزمان، فسيطرة هذه المعاني علي شعره تمثل تمكنها من نفسه:

قضاء يوافي من جميع جهاته كما هو في أيماننا والأياسر[1]

الإنسان في شعر أبي العلاء يتعقبه قدر لا يني عن المطاردة:[2]

إن سار، أوحلّ الفتي لما يزل يلحظه المقدار بالمرتبة[3]

ويتخبط أبو العلاء في تسمية القوة التي تسيطر علي الإنسان، أو تجبره، فتارة نجد هذه القوة في شعره قوة ألهية، وتارة قوة مادية هي قوة الصدفة، أو قوة العلاقات الديناميكية بين أجزاء الطبيعة، وكأن أبا العلاء يدين بفلسفة الضرورة وللحتمية المادية، والحتمية اللاهوتية،- وكل ما يشبه ذلك-، علي الرغم من أنه لا يدين إلا بفلسفته الخاصة: فلسفة الألم وحتمية العجز لا حتمية الفكر المجرد المنظم ، إن تأملات المعري وآراءه لا تنطلق إلا من تجربته الخاصة فقط ، يقول:

لم يسقكم ربكم عن حسن فعلكم ولا حمامكم غماما سوء أفعال
وإنما هي أقدار مرتبة ما علقت باساءات وإجمال[4]

وأيا كان نوع القوة المهيمنة على الإنسان فهو عشواني- في شعر أبي العلاء- فهي لا تخضع للمنطق، بل للانفعال المحض، ومع ذلك تصيبنا سهامها، وتخترق كل وسائل دفاعنا[5] لأن الإنسان كيان هش:

تمشي علينا الحادثات، ووطؤها كسنا البوارق ليس فيه عثار[6]

ولأن الدهر يخيفنا، فنحن نضطرب في دفاعنا عن أنفسنا، أمامه وهذا

---

(١) ل١ /ص ٤٠٨.
(٢) ل١/ص ٤٠٨.
(٣) ل١/ص ٥٨.
(٤) ل٢/ص ٢٣٢.
(٥) ل٢/ص ٦٦.
(٦) ل١/ص ٣٢٩.

هو مقتل الإنسان.[1]

لذلك يسخر أبو العلاء من الإنسان الذي يعب الحياة دون أن يقف لحظة واحدة أمام هشاشته وتكوينه الشبيه بالدمي التي تلعب بها المقادر

ويمرح الإنسان من جهله وهو أسير في رباط وقد[2]

الإيمان بالجبر اغتراب عن الوجود لأنه علاقة متوترة بهذا الوجود، علاقة قائمة علي الريب والخوف[3]، ومع ذلك كان الاغتراب لأبي العلاء، وكان- أي الجبر- يمثل لونا من علاج أبي العلاء لذاته تلك الذات التي لا تفتأ تعيره بنقصه وعجزه وبأنه غير مستطيع بنفسه- كما وصف هو حاله في إحدى رسائله.

فالارتكان إلي الجبر خلاص من مسئولية الفعل الإرادي، أو مسئولية التغيير الإرادي للمصير، بما يحمل عن الذات عبء فشلها وإحباطها " فالأصل في إيماننا بالجبرية إنما هو شعورنا السيكولوجي، أعني شعورنا بأن الأفعال التي نحققها متوقفة علينا، وأن سلوكنا بأكمله قد أودع بين أيدينا".[4] فالحرية فزع ومسئولية عظيمة تهاب منها الذات، لذلك" حينما تضعف في أنفسنا معاني الوجود، فأننا سرعان ما نهيب بالوراثة والبيئة والمجتمع، والقدر والقضاء الإلهي لتفسير أفعالنا، وتبرير مظاهر ضعفنا" [5] فحديث أبي العلاء عن الجبر محاولة لاقناع ذاته به، قبل محاولة إقناع الأخرين، لذلك فهو يطرح القضية بأسلوب يروق للوجدان لا للعقل، فدليله في هذه القضية هو أن الإنسان لم يختر الحياة أو الموت، ومن ثم فهو فيما بينهما غير مسئول ومثل هذا الرأي يروق المتبعين :

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي فهل لي بعد تخيير[6]

هذه المقولة هي بداية حديثه عن الجبر وهي نهاية هذا الحديث أيضا،

---

(١) ل١/ص ٢٨٩
(٢) ل١/ص ٨٧
(٣) د زكريا إبراهيم مشكلة الحرية ص ٣٣
(٤) السابق للمقدمة ص ٩، ١٠ بتصرف
(٥) ل١/ص ٣١٥
(٦) ل٢/ ص ١٧٩

لأن الجبر في تصور أبي العلاء المعري منتصر حتى في تفاصيل الحياة البسيطة:

وردت إلى دار المصائب مجبرا وأصبحت فيها ليس يعجبني النقل
أعاني شرورا لا قوام لمثلها وأدناس طبع لا يهذبه العقل
سحائب للسقيا وسحب من الردى ونبت أناس مثل ما ينبت البقل

فالجبر لا يفسر لأبي العلاء تناقض الحياة الذي تستقبله حواسه الحية، فالإنسان يعطي الحياة، ويعطي الموت... والجبر لا يفسر أيا منهما.. إلا إذا كان الجبر يعني- عند أبي العلاء بالطبع- إلغاء كرامة الوجود البشري، بما يجعله ألعوبة تافهة، وهذا ما يضني أبا العلاء:

وما كنت في أيام عيشك منصفا ولكن معتي في حبالك تجنب[١]

وكان هذا الإحساس من دواعي اشتهاء أبي العلاء للموت- كما سنرى بعد ذلك.

وفي رثائه لامه يبث أبو العلاء إحساسه الحاد بالجبرية الذي جعل من حياته موتا متواصلا،وكان هذا الإحساس موافقا تماما لحادثة موت الأم، حيث كان فقدها قضاءا عليه بالموت دون اختيار منه فكأنه رأي موته وعاناه حيا، يقول:

وصرّفني فغيرني زمان سيعقبني بحذف وادّغام [٢]

يقول التبريزي: " أي صرفه من حال إلي حال غيره، بالعمي والشيخوخة، وغيرهما... سيعقبه بحذف وادغام... أي يزيله ويخفيه في القبر، وإنما الفز عنه بالتصريف." [٣]

فالتصريف هو السلوك اللائق بالقوة العليا تجاه الوجود الإنساني، الخاضع لإرادة غير إرادة ذاته. التصريف أيضا هو ذلك الحلم الذي ارق أبا العلاء وتمني لو ملكه وامسك به.

ويظهر في قول التبريزي ما يؤيد زعمنا بأن انطلاق أبي العلاء إلي

---

(١) ل/١/ص ٧١
(٢) ق٤/ ١٤٣٣.
(٣)شروح سقط الزند / ق ٤/ ص ١٤٣٣

الجبر كان مبعثة محنة فقد البصر حيث يفسر التصديق بالعماء.

وفي البيت السابق تدرج أبو العلاء بالجبر من العمي إلي الشيخوخة إلي الموت وكأنهم مرادفات لمعني واحد، وكأن الجبر لصيق برحلة الإنسان في الحياة.

ويصف أبو العلاء حياته وصفا حادا في عنائها ومرارتها، لكنه خلال ذلك يطرح عن نفسه مسئولية وجود هذه الحياة:" كم آكل ما استوبله، وأسمع ما لو صممت عنه أحمدته، كأنما أطرح إلي سموم الجسد سموما، من أجالس؟ وجلساء الصدق قليل، وبمن أثق، ونفسي الغادرة الخؤون الحجر أوثق من ذي الحجر".[1]

كذلك فإن وصف أبي العلاء للقدر وصف انفعالي غريب، فالقدر يطالبه بثأر لا يزال يتعقبه به، وهو ينجح في إدراكه حتى يتركه عاجزا عجزا قاسيا:" طلبني الزمان بوتر، ورماني بالقتر، وما ترك لي مير قتر، غير ملقي جسد تحت الصفاح." [2]

وتروق لأبي العلاء كل المعاني التي تطرح عن كاهله مسئولية الفعل، فلا يفتأ يردد أن فراره من الدهر لم يغنه[3] وأن الدهر لا يدعه لمحة من الزمن يغيب عن ناظره[4] وأنه يغلق أمامه كل الأبواب:

" الله خلقني لأمر، حاولت سواه، فألفيت المبهم بغير انفراج".[5]

ومن الطبيعي أن يكثر أبو العلاء من ذكر العجز والفشل- وما إليهما- في سياق الحديث عن الجبر، لأن العجز ومرادفاته مدخله إلي الجبر، ولأن الجبر كما قلنا يبرر له وجوده العاجز، لذلك فهو يقف كثيرا عند صورة الطائر السجين الذي لم ينفعه التهجير، ولا الإدلاج[6] وفي رثاء أمة يرمز المعري بالاسد إلى الإنسان المرغم (المجبور) فيصوره وقد اجترأ عليه البعوض بعد أن

---

(١)أبو العلاء المعرى/ الفصول والغايات / ص ٤٣٦، ٤٣٧.
(٢)السابق / ص ٤٢٣. القتر : ضرب من السهام
الصفاح . الحجارة العريضة
(٣)الفصول والغايات / ص ٢٨٣.
(٤)السابق / ص ٢٥١
(٥)رسالة الهناء / ص ٣١، ٣٢ وذلك المعني في ل١/ ٣٧٤
(٦)الفصول والغايات / ص ٢٨٥

كان مفترسا ، معترة الجماجم تحته في الغاب ، تلك الجماجم التي قد تشير الي قوة افتراس الأسد وقد تعني الإشارة إلي أن مصير هذا الأسد لن يختلف عن مصير من هو أضعف منه .. فالموت هو المصير المشترك هو تلك الجماجم الماثلة الشاهدة بنهاية كل حي.. هي إذن صورة تعبر عن العجز والجبر .. الجبر المتمثل في تعطيل القوى الخارجية لإمكانات الإنسان الداخلية:

ولا يشرى حساب الدهر ليث   له ورد من الدم كالمدام
يغنيه البعوض بكل غاب   فريش بالجماجم واللمام[1]

وقد يترك الإنسان حرا في فعله، فيفعل ما يشاء، متخيلا أنه إنما ملك مصيره بيده، فإذا به في كل أفعاله لا يبعد عن طريق الموت.. بل هو يسعى إلي قبره بيديه وقدميه معا... أن العلاقة بين الإنسان والدهر علاقة غير متكافئة القوي"... في شعر أبي العلاء:

غدوت وريبه فرسي رهان   يجيد نوائبا واجيد صبرا
وكم ساع ليجبر في بناء   فلم يرزق بما يبنيه جبرا
كأم القز يخرج من حشاها   نري بيت لها فيعود، قبرا[2]

فاعتناق أبي العلاء للعدمية، كان مرصوفا بهذا الإيمان العميق، بالجبر.

وأبو العلاء لا يري الجبر قوة مهيمنة عليه وحده، بل أن تأمله المنفعل أودي به إلي أن يري البشرية كلها ينتظمها سلك واحد من المهانة والتصغير والتحقير والتسيير من خلال الجبرية :

نهاب أمور، ثم نركب هولها   علي عنت من صاغرين قماء [3]

فنحن كما يصورنا المعري لا نملك دفعا لما لا نريد[4]، بل أن اتصافنا بالشر والدنس ذاته يعود إلي قوي غيبية عطلت سعي البشرية إلي التطهر[5]، ورتبتها في خيط لتلهو بها، بل نحن نبدو مالا ينفق منه الدهر ما يشاء[1] مطبقا

---

(١) شروح سقط الزند/ق٤/ص ١٤٣٤.
(٢) ل١/ص ٣٦٤.
(٣) ل١/ص ٥٤ وكذلك ل١/ص ٤٠٤.
(٤) ل١/ص ٢٣٠.
(٥) ل١/ص ٣٦٧.

يشاء[1] مطبقا علي أنفاسنا كالفلك المقيم، الذي لا نملك إلا استقبال غيثه شرا كان أم خيرا[2].

ولأن الحديث عن الجبر في شعر أبي العلاء مبعثه فقد البصر، لذلك لا نعجب من أبي العلاء حين ينفي إيجابية الفعل الإنساني ويسخر من جدوى تقديم أسباب الحياة، وكذا لا نعجب من تأكيده أن الرزق يأتي سواء بالجد أم بالتكاسل[3].

وإذا تساءل سائل عن دور العقل في حياة الإنسان في اعتقاد أبي العلاء ألمت بالأخير سخرية فاجعة، فإذا به يصور العقل محدودا لا يرد قدرا ولا يحدد مصيرا.. بل لا يقدر علي شئ:

والعقل زين، ولكن فوقه قدر فماله في ابتغاء الرزق تأثير[4]

أن العقل في هذه الرؤية، لا يضيف إلي الإنسان ميزة أو وعيا وتفاعلا وحركة[5].

والارتكان إلي قوة الله- دون جهد ما- كفيل" بتسيير الأمور وخلق المعجزات حتى أن الواقف تحت المطر له إلا يبتل [6] لما فعل الإنسان في حد ذاته دون قوة من السماء فهو فعل خائب غير مجد[7]، وهنا يكشف أبو العلاء وجهه الحقيقي في قضية الجبر، يجاهر بقضيته الأساسية التي وطنت فيه الإحساس بالجبر.. ويكشف ما كان يلتوى ويدور ليفصح عنه ألا وهو: ميله إلي تأكيد لا مسئوليته في الحياة:

فكيف احمل عبئا، أن جري قدر علي، أدرك ذا جد ، ومن سمدا[8]

---

(١) ق ٣/ص ١٠١٢، ١٠١٣.
(٢) ل٢/ ١٢٧.
(٣) ل١/ص ٤٣٩ وذلت للمعني في الفصول والغايات ص ٢٠٦.
(٤) ل١/ص ٣١٥
(٥) ل٢/ص ١٧٦.
(٦) الفصول والغايات /ص ٢١٩.
(٧) ل١/ص ٨١.
(٨) ل١/ص ٢٥٩ سمد أي علا، وأيضا سبدا : لها ... لسان العرب مادة سمدا جـ٢٣/ص ٢٠٨٩.

ولأهمية هذه القضية من نفسه، يبث أبو العلاء هذا المعني في أكثر من موضع، وبأكثر من أسلوب للطرح، وأكثر من مدخل... فهو يدرك أ بهذا الرأي مدان بأنه ينفي قيمة السعي البشرى، وانه من ثم يدعو إلي التـاسل والفراغ والفساد، لذا يحتاط بقوله:

وما نهنهت عن طلب ولكن ... هي الأيام لا تعطي قيادا
فلا تلم السوابق والمطايا ... إذا غرض من الأغراض حادا[1]

وإذا كان أبو العلاء قد نفي قيمة عقل الإنسان، ودوره في توفير اسباب الحياة، فأنه لم ينف قيمته في التدليل علي صحة هذه القضية، فهو لا ينى يستخدم أساليب المنطق والاستدلال والاقناع المختلفة... واقعا بهذا بين تناقضين:

ولم لم يقتر خالق الليث فرسه ... لمطعمه، لم يعطه الناب والظفرا[2]

وبهذا الطرح للقضية، وبهذه المعالجة يمزج أبو العلاء بين رؤيته لقضية الجبر وقضية الشر،" فالإنسان مجبر علي الشر" هذا ما يريد أبو العلاء إثباته.. لا لينشر الفساد في المجتمع- فهذا يتناقض مع دعاواه في الإصلاح وتثريبه لأهل عصره- بل ليصل إلي تبرئة يد الإنسان، مسئولية عما يلحق به من خاصة الإعاقة والتعطيل..

بيد أن قول المعري أن الإنسان مجبر علي فعل الشر يتبعه القول ان الإنسان أيضا مجبر علي هجر الخير وقد أدى هذا الفكر بالمعري إلى أن يعالج بعض القضايا الإسلامية معالجة انفعالية سريعة من منطلق منطقه الخاص.. فمرتكب الكبيرة في هذا السياق ليس مدانا:

إن كان من فعل الكبائر مجبرا ... فعقابه ظلم علي ما يفعل
والله إذ خلق المعادن عالم ... أن الحداد البيض منها يجعل
سفك الدماء بها، رجال اعصموا ... بالخيل تلجم، بالحديد، وتنعل[3]

---

(١) ق٢/ص ٥٥٣، ٥٥٤.
(٢) ل١/ص ٣٥٠.
(٣) ل٢/ص ١٨٧.

فالبيت الثاني والثالث يؤكدان أن معني الأبيات مجملا هو ميل أبي العلاء إلي القول بالجبر، وأنه في هذه الأبيات لم يكن يعرض رأي طائفة، فكرية أو مذهبية ، بل كان يصف ما أوصلته إليه التجربة

ولعل إيمان أبي العلاء بالجبر، وثقته بانعدام قيمة السعي البشرى، يبرر لنا- أو هو أحد مبررات ارتكانه إلي عزلة قاسية، وفي ذات الوقت تكون هذه العزلة بشكل ما- خاصة في بدايتها- دليلا علي إيمان أبي العلاء بالجبر... ونقول خاصة في بدايتها لأنها بداية انفعالية.. لكنها بمرور الوقت أنتجت عملا هو ذلك الشعر الذي بين أيدينا وذلك النثر، بما يعني أن عزلة المعري إيجابية وكذلك اغترابه.

فأبو العلاء لم يتصالح مع محنته، لم يعل عليها، ولم يتحكم في تجربته أو يقيمها.. ظل منفعلا بها، وظلت معتلية ظهره وعقله ووجدانه لذلك لم ينظر أبو العلاء إلي قضاياه نظرة الفلاسفة- كما سنوضح لاحقا- الفلاسفة- الذين يري بعضهم أن الطريق الأوحد للخروج من قيد الضرورة يتمثل في مطابقة الإرادة للضرورة، ويرون أن الحكيم إذا توصل إلي" فهم قانون الأشياء أو الضرورة الكامنة في الطبيعة، وإذا استطاعت ارادته أن تندمج في تلك الإرادة الكلية التي تحدث كل شئ، فأنه لن يكون مجرد عبد أسير، بل سيكون له دور فعال في مملكة الطبيعة".[1]

فالعامل النفسي الذي يدفع إلي اعتناق مبدأ آخر غير الجبر" يساعدنا علي أن نحيل الجبرية القاسية إلي عليه غائية معقولة، فنضع في مقابل القول بالقضاء والقدر ضربا من الإيمان بالجبرية العقلية".[2]، والحقيقة أن أبا العلاء لم ينعم بمثل هذه الحياة الروحية الرائعة، لا قبل العزلة ولا خلالها- ولأنه لم يقصد بالعزلة ذلك النوع من الحرية الذي يتسامي فيه الفرد علي ذاته[3]، او تلك الحرية التي يختار ذاته كاملة[4] اختيارا سويا عقليا، لأن أبا العلاء صبغ كله بملامح النقمة والسخط، والاحتجاج والانفعال.

وعلي الرغم من ذلك،- علي الرغم من أنه لم يقصد بالعزلة إلا الهرب

---

(١)قضايا العصر / ص ١٢٨، ١٢٩ بتصرف
(٢)مشكلة الحرية / ص ٢١٦.
(٣) السابق / ص ٢٢٤
(٤)مشكلة الحرية / ص ٢١٤

أو التهاو ـ والتـ يم- كما وصف حاله حين اراد جمع حروف الزيادة في للغة العـ بية- في جملة. تهاوني أسلم والتناهي سمو- علي الرغم من ذلك- فقد أرغم ابو العلا ـ في عزلته الطويلة الواسعة علي التساؤل ومواجهة الذات.. ذاته الحقيقية ـ بما لأول مرة لذلك كانت عزلته غاية في التعقيد والخصوصية، ولم يمنعه الجبر الذي يؤمن به- والذي هو أقوي دوافعه إلي العزلة- من ان ينفذ ببصيرته فيما حوله، وأن يتمعن في الذات الإنسانية.[١]

وقد كان من دواعي القول بان أبا العلاء لا يميل إلي الجبر، رؤيته للذات الإنسانية بعين الاتهام، ووصفه لها بأوصاف الفساد والشرور.. فقد أكثر من ذم الناس وهجاء أخلاقهم[٢] حتى أنه لم يستثني نفسه من الذم[٣].. لذلك حاول كثير من الباحثين والدارسين التوفيق بين هذا كله والقول بالجبر[٤].

وأبو العلاء في اعتقادنا ليس متناقضا فهو يميل إلي القول بأن فطرة الإنسان فاسدة، وأنه سيئ بالغريزة أو الطبع"، وهذا ما تراه الفلسفة الوجودية حلا ممكنا مقنعا لهذه القضية فالإنسان مكون علي نحو يجعله عرضه لامكان السقوط، أعني لعدم التناسب، أو العجز عن أن يكون علي مستوي يتناسب مع منزلة إمكانه، هناك لذن شئ أشبه بالتصور المأسوى للذنب عند الوجوديين، فالإنسان بطريقة تكوينه ذاتها، من حيث هو وجود متناه، وحر أيضا عرضة لامكان الذنب، ويبدو أن ارتطامه لا ينفصم عن سقوطه[٥].

فأبو العلاء في ذمه للناس إنما ينعي عليهم الفطرة الفاسدة، فهو بذلك يذم " جوهر" القضية، ولا يذم الشخوص الماثلة أمامه دليل ذلك ذمه لنفسه رغم إيمانه ببراءته من كل ما يقترفه مجتمعه من آثام، وإيمانه بتفوقه عليهم في السلوك والقدرة علي ضبط النفس.. فهو بهذا الهجاء الحاد للبشرية إنما يثبت- عن قصد أو عن غير قصد- عدم مسئولية الإنسان عن فعله.

أما ما نراه من غضب وثورة، في حديثة عن الفساد، ورغبته في

---

(١) د. ص الح اليظي. الفكر والفن / ص ٢٥١.
(٢) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي/ ص ٣٠، ٣١.
(٣) أبو العلاء المعرى رسالة الغفران جـ١/ ص ٤٩، ٥٠.
(٤) مع أبي العلاء في سجنه ص ٢١١، ٢١٢ رسالة الهناء/ ص ٥١ إلي ٥٤ أمراء الشعر ص ٤١٦.
(٥) جون ماكورى/ الوجودية ٢٩٤

الإصلاح، فهو - واقع أو نابع- من تعقيد مشاعر أبي العلاء التي هي في جانب منها لا تتصالح مع فكرة حشاشة الإنسان وعدم استطاعته ومسئوليته. كما أن هذه المشاعر في جانب آخر منها غير برينة من الإحساس بوجيعته الشخصية وعجزه فهو ينطلق إلي مجتمع عاجز مشوه ناقص- في أخلاقه واعتقاده وفكره- من شعوره بأنه كائن ناقص عاجز- ماديا أو جسديا- وهو يغضب عالما بلا جدوى الغضب... لكنه تنفيس المكبوت، ورغبة في إثبات الذات وهو ينعى عجزه في صورة هذا المجتمع الفاشل، وينعي علي المجتمع محدودية قدرته في وجوده الشخصي العاجز:

وقد غلب الاحياء في كل وجهة هواهم ، وأن كانوا غطارفة غلبا

كلاب تعاون أو تفاوت لجيفة وأحسبني صدت الأمها كلبا[1]

وقد نري في ظاهر شعر أبي العلاء ما يناقض قوله بالجبر، حيث يثبت القيمة للسعي والفعل، ويصور الحياة حركة وأسبابا تقدم:

تروم رزقا بأن سموك متكلا وأدين الناس من يسعي ويحترف.[2]

ولا نحسب هذا القول إيمانا بالإرادة، لأن سلوك أبي العلاء مجتمعا في الحياة يتناقض معه، بل هو من قبيل الاضطراب العاطفي... والوقوع تحت تأثير الإيمان، والمثول لحكمته.. والاقتناع بجوهر الإسلام الذي يتناقض مع هذا الجبر.. وهو أيضا قول من باب معالجة للذات التي تبرأ من عجزها حين تتخذ موقف المصلح لنوع آخر من العاجزين.

كذلك قد نرى أبا العلاء يتوسط القول بالجبر، والقول بقيمة الإرادة في قوله:

للناس مختلفون، قيل المرء لا يجزى علي عمل، وقيل يجازى

واللـــه حـــق، مـــن تـــدبره عرف اليقين وأنس الاعجازا[3]

إنما هي لحظات من الاستسلام الوادع.. والضعف الشجي الذي لم يجد

---

(١) ل١/ ٩١

(٢) ل١/ص ٢٣

(٣) ل١/ص ١٨٨

مفرا من التسليم للقوة العليا تعبا وإشفاقا من الخطأ والاجتراء.

صراع أبي العلاء بين ثنائية الروح والجسد:

كان من الطبيعي لأبي العلاء أن يعاني مثل هذا الصراع، فقد أدي به فقد بصره إلي أن ينكفئ علي ذاته ويتحسسها في عزلة خاصة قبل أن تبدأ عزلته المادية بزمن، ففي العزلة الأولي التي خلقها له فقد البصر كان من المنطقي أن يهتم بحرمانه من الحياة- أو من جوانب بعينها من الحياة بسبب هذه العاهة.. وأن يصطدم بحواسه الشبقة إلي هذه الحياة.. هذه الحواس التي ضخم من تفتحها الحرمان.. فيتبدي الصراع أو تتبدى ثنائية الروح والجسد هذه في هذا الحرمان وهذا الإحساس الحاد بالشبق إلي لذائذ الحياة.

ومن ناحية أخرى كان تكوين أبي العلاء الثقافي يتعمق به داخل الكائن البشري ويكشف له ضعف هذا الكائن وتناهيه... وعجزه عن استثمار طاقاته كيما يرتفع فوق رغائب الذات... وكان ذلك كله يمثل جانب الروح... أو النفس الشفافة التي ساعدته علي التزام ما لا يلزم... في الحياة، والفن... وجعلت له موقفه الساخط من الحياة، فرآه قدرة وعلوا، وكمالا.

أذن فقد وقع أبو العلاء في ثنائية الروح والجسد، لأن فقد بصره كان يدفعه إليها مباشرة.. مثلما وقف وراءه في كل صراع وقضية.

وقد لاءمت قضية الروح والجسد رأي أبي العلاء في مشكلة الشر ومشكلة الجبر.. وكونت القضايا الثلاث ثالوثا متكاملا أدي بأبي العلاء إلي اليقين بتناهي الإنسان وضعفه وعدم قدرته علي المسئولية، فالجسد أو الطبع أو الغريزة فطرة مخلوقة بشكل يؤكد معني الجبر... وفي ذات الوقت هي مخلوقة بشكل شره فاسد ومن ثم فإن توجهها إلي الشر لازم لأنه جبر لا اختيار.

وقد رأينا في الفصل السابق ماهية صراعه مع النفس، وكيف أنه يعنفها حين تجذبه إلي الحياة، وتتمرد علي حرمانها من هذه الحياة، وتتحسر علي مافاتها من جمال الوجود:

غدوت علي نفسي أثرّب جاهدا وأمثالها لام اللبيب المثرب

والنفس هنا مرادف الغريزة أو الطبع أو الجسد الطيني، لكنها قد تصبح في قول آخر هي الروح التي تعاني من وطأة المادة، وهنا يكون سجنها في

الجسد الطيني أحد سجون-أبي العلاء المعرى:

اراني في الثلاثة من سجوني فلا تسال عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري، ولزوم بيتي. وكون النفس في الجسم الخبيث

" علي أنه لا يعفي الجسم أحيانا من اللوم والتعنيف،يقول:

فكيف لا تخبث النفس التي جعلت من جسمها في وعاء كله دنس

أو يقول:

فان لأجساد الأنام غرائزا إذا حركت للشر صاحبها لجا

والجسم بعد كل شئ هو- فيما يراه- الأداة التي يحقق بها الطبع الإنساني ما يتوخاه من شرور أو أذاه(١).

والطبع والغريزة مرادفان للجسد- أو النفس حال خبثها- ويقابلان في الإنسان العقل والتحكم:

نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبعي إليها بالغريزة جاذب(٢)

وأبو العلاء قد قرأ آراء الفلسفات المختلفة والمذاهب المتنوعة في هذه القضية، لكنه - فيما نعتقد- لا يدين براي من آراء أي منها سواء كانت الفنوصية- كما ذهب بعض الدارسين - أو غيرها(٣).

لأن دافعه إلي هذه القضية وغيرها هو عناؤه الشخصي، ومواجهته لها كفرد أشعل له عجزه كل القضايا التي تتعلق بمصيره- كفرد أولا- في هذا الوجود، ثم مصيره كإنسان، كذلك كان لابد لتكوينه الثقافي ان يحثه علي التامل، ويساعده علي التنقيب.

ولعل بساطة حديث أبي العلاء عن هذه القضية- وغيرها- من القضايا الفكرية- يؤكد كلماتنا السابقة:

إذا اقترنت بجسم الحي روح فتلك، وذاك في حالي جهاد(٤)

---

(١) رسالو الهناء/ ص ٣٢.
(٢) ل١/ ١١٣
(٣) قضايا العصر في ادب ابي العلاء/ ص ١٨٥، ١٨٦
(٤) ل١/ ٢٨٠

obeikandi.com

ولعل الجزء الهام من رؤية أبي العلاء لهذا الصراع، هو أنه لا ينظر إلي نتيجته بتفاؤل، فهو صراع غالبا ما ينتهي لديه بغلبة الغريزة، أو الجزء المادي من الإنسان، وهنا نفهم لماذا أرجع أبو العلاء قوي الشر إلي قوة غيبية، واعتقد بالجبر، أسباب ميله إلي القول بالعبثية:

تجاور هذا الجسم ، والروح برهة فما برحت تاذى بذاك وتصدا[1]

والروح أن كانت مريضة، أو ضعيفة وتعلق صاحبها بالحياة، فهي كالنفس تخبث، وتضئ بالشفافية، أو عدم الاشفافية:

ولولا ضعف أرواح عرانا سفاها ما ابتهجن ولا ابتأسنه[2]

أن ما يبتغيه أبو العلاء من التفكير في هذا الصراع هو أن يتأكد من إمكانية غلبة الروح علي الجسد، ومن ثم إمكانية تفوق الإنسان علي فطرته السيئة، وعلوه فوق ذاته ومادته المصنوع منها...

أبو العلاء إذن ينشد القوة المعنوية التي تجعله قادرا علي أن يقف علي هامش الحياة ناظرا إلي مغرياتها في غير ضعف، وغير حاجة إلي جهاد النفس، وينشد الانفصال عن الحياة دون ألم أو بكاء،.... وقضيته الكبرى في الوجود هي هذا المعني: أن ينفصل بلا حرمان، أن يغترف بقوة واقتدار دون أن يعاني ألم الاغتراب، ومن هنا حاول أبو العلاء طيلة حياته أن يصارع قيوده المعنوية طلبا لهذه القوة، لكنه تأكد من أن الوصول إليها لن يتأتى له- أو لغيره من بني البشر- إلا إذا انفصلت الروح عن الجسد، وكأنه بذلك ينفي اقتدار الجنس البشرى علي طبيعته المتكونة من جسد وروح، ينفي اقتداره علي السمو، لذا يقول :

إنّ السيوف تراح في أغمادها وتظل في تعب إذا لم تغمد[3]

وهو بهذا القول ينفي عن البشرية كلها القدرة علي التحكم في مصيرها، ويحكم عليها بفشل المسعي إلي التفوق علي الفطرة السيئة، ويحكم عليها بلا جدوى أي صراع علي ظهر هذا الوجود،.... وهذه المشاعر كلها هي اليأس

---

(١) ل١/ ٣٨

(٢) ل٢/ ٢٦١.

(٣) ل١/ ص ٢٨٣.

من لـي بحسم، لا يحس رزيـة | لكـن، يعـدّ كتربـة أو جلمـد
روح إذا اتصلت بجسم لـم يـزل | هو، وهي في مرض العناء المكمد
أن كنت من ريح فياريح اسكني | أو كنت من لهب فيالهب أخمد[1]

لذلك يشتهي جسدا لا يحس اشتهاء .

أن فقد البصر الذي أورث العناء جسد أبي العلاء وروحه، هو فاتحة كثير من القضايا، ومفتاح فهم العزلة العلائية التي كان من دوافعها الإقرار بفساد الطبع الإنساني، ومن ثم ذم أبو العلاء نفسه مثلما ذم البشرية كلها، واعتزل الحياة يائسا من الإصلاح، حتى بالتوحد الذي هو:

" اعداد لأجسادنا اعدادا بالصقل، واماتة الزوائد[2] فقد أدرك فشل هذه المحاولات، لأن تلك الزوائد أو الرغبات والأماني وتلك الحيوية الغريزية في نفس أبي العلاء المعرى ما فتئت تهذي داخله حتى إحالته إلي كائن منفعل، محروم، ساخر، متألم أشد الالم، حانق أشد الحنق. ثم ان جوع هذه الزوائد وحرمانها جعلاها جزاء أصيلا من تكوينه العام لا زوائد مهملة هينة، سهل اصماتها.

الزمان في شعر أبي العلاء المعري:

يقف الزمان علي قمة المفردات الميتافيزيقية التي يواجهها المغترب، فالزمان قوة متسلطة تشعره بضآلته ووهنه، وتؤكد له معني ما من أعمق معاني الجبر والعبث:

قد صحبنا الزمان بالرغم منـا | وهو يردي كما علمت الصحابـا[3]

لقد كان" الإحساس العلائي بالزمن- أحد وجوه الكون الإنساني- فادحا ومرهقا، لم ير في الزمن سوى وجه صخري قاحل ينذر بالشر، وينزل النقمة

---

(١) ل١/ ص ٢٨٤
(٢) عبد الله العلايلي/ المعرى ذلك المجهول/ الأهلية للنشر والتوزيع/ بيروت/ ١٩٨١م ص ١٠٣
(٣) ل١/ ص ١٠٥

بالإنسان"[1] وإذا كان الإنسان يستشعر ثقل خطوات الزمن فوقه، فما بالنا بالمغترب الذي " استغرقته" الحسرات علي كل فائت وآيب، وشتته الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب"[2] فهو لا يري الزمن مدة تنقضي، وتورث حسرة فقط، بل يراه قوة من تلك القوى الغيبية التي يصارعها الإنسان، وتؤكد مسيرته المأساوية.

والواقع أن كل قضية من القضايا الميتافيزيقية تصلح لأن تعتبر قمة القضايا الفلسفية، وقمة مشاكل الاغتراب الميتافيزيقي، وأبو العلاء حين استشعر بعمق تسلط قوى الزمان علي الإنسان دفعه هذا إلي نفي العلة الغائية للوجود، ومن ثم دفعه إلي الارتكان إلي العزلة:" هنالك الله والزمن، ذلك الصليب أو هذا السيف، لا شئ هنالك حقيقي غير تلك المشاكل والمتاعب، وعلي المرء أن يعيش مع الزمن، ويموت معه، أو يجب عليه أن يتحاشاه، ويتجاهله من أجل حياة أعظم، وأني أعرف أن المرء يستطيع أن يجد تسوية، فيعيش مع العالم بينما يؤمن بالأبدية" تتناثر تلك الرؤى الوجودية في شعر المعري [3].

فقد عاني أبو العلاء مواجهة بشريته التي تؤكد له دائما هشاشته، وقابلية وجوده للتلاشي، وتمكن كل الغوامض منه.

ويرجع استشعار أبي العلاء الحاد للزمان- فيما نعتقد- إلي أنه عاني الحياة بعمق متواصل، وإلي أن تجربته معها أو قصته في تناقض مرير بين استثقال خطوات الزمن والاهابة بالموت تارة واستشعار الحرمان، والإشفاق من مغادرة الحياة تارة أخري، وهو في الحالة الأخيرة يفزع من سرعة الثواني والدقائق التي تدنيه من الموت قبل أن يتزود من الحياة بالحياة.

وانفقت بالأنفاس عمري مجردا ... بها اليوم ثم الشهر يتبعه الشهر
يسيرا يسيرا مثل ما أخذ المدى ... علي الناس ماش في جوانحه بهر
كذر علا ظهر الكثيب، فلم يزل ... به السير حتى صار من خلفه الظهر [1]

---

(١)د. صالح اليظي الفكر والفن / ص ٢٣٣.
(٢)أبو حيان التوحيدي الإشارات الألهية ص ١١٤، ١١٥.
(٣)أسطورة سيزيف/ص ١٠١.

الظهر[1]

والزمان ليس قوة ماضية تسعي بالإنسان إلي حتفه فقط، بل هو قوة تخفي في طياتها الاحداث، وحقيقة المصير الإنساني:

الساع آنية الحوادث ما حَوت	لم يبد إلا بعد كشف غطائها[2]

ولا يبدو الزمن لابي العلاء إلا في صورة بشعة تؤكد تسلطه، وغموضه، وقسوته، فساعاته تارة كالأسود المفترسة[3] وتارة تبدو كالقطا المجنح في سرعة وثوبه[4] وتارة ثالثة تبدو كالحيات تهدد من يقترب منها بسوء المنقلب[5]. ومن هذه الصور البشعة للساعات يتشكل اليوم ثقيلا ، وكأنه رحلة إنسانية كاملة الكآبة:

تـداولني صـبح ومـسي وحنـدس	ومـرّ علـيّ اليـوم والغـد والأمـس
يـضئ نهــار ثــم يخــدر مظلــم	ويطلــع بـدر، ثـم تعقبـه شـمس[6]

أن المغترب يقف علي حافة الحياة، يراقب الأشياء والموضوعات والمواقف من خلال انفصاله، لكنه في ذات الوقت غير منفصل، أنه لا يساوي شيئا، أو لا يعني شيئا لأي جزء من أجزاء الحياة، لكن الحياة كلها تعنيه، وهنا... تكمن المفارقة، ومن هنا يبدو له اليوم الواحد بصبحه ومساه قدمين للزمان الكئيب الذي لا يخطئ في وطئه عليه:

بـل الفتيــان اعتــاد قلبــي أذاهمـا	بشيمان أسياف الردي، ويهــزان
عزيـزان بـالله- الـذي لـيس مثلـه	يـذلان – فــي مقــداره- ويعــزان
وكم فتكا – والحسّ قد بان عنهما	بأهـل وهــود أو جبــال وحــران[7]

وحين يقف المغترب أمام الوجود يشعر بضعفه، وشيئيته، فيتوجع أبو

---

(١)ل١/ ٣٠١ بهر تتابع النفس من الاعياء/ لسان العرب/ الجزء الخامس / ص ٣٧٠
(٢)ل١/ص ٢٣٠
(٣)ل١/ص ٢٩٣
(٤)ل٢/ص ٨٢
(٥)ل١/ص ٤٢٠
(٦)رسالة الهناء / ص ٨٩، ٩٠ الفتيان هما الليل والنهار هنا
(٧)ق٣/ص ١٠١٦

العلاء من عجز الإنسان عن رد أي فائت من الزمن[1]، بل عن إيقاف سيرورة هذه الأوقات التي تهزأ من حلم الإنسان بالخلود[2].

عاش أبو العلاء نيفا وثمانين عاما، عمرا عريضا متسعا- لو كان لغيره-، أما هو فلم يجن منه إلا مراقبة الحياة عن بعد، وبحرمان شديد، لذلك فهو لا يفتأ يؤرخ لعمره ويحصيه، ويقف عند مرحلة مرحلة منه باكيا ظمأه المصاحب له:

شربت سني الأربعين تجرعا فيا مقرا، ما شربه فيّ ناجع

كما يبكي الخمسين التي مضت في غير طائل، وكأنه قد أدرك أنه لم يعش بامتلاء- على حد تعبير الوجودية- فالواقع أن هذا الإدراك هو قضية أبي العلاء سواء في التعامل مع الحياة المادية التي عاشها، أو مع الحياة كمعني مجرد. فخلف كل موقف نفسي أو فكرى لابي العلاء" نقصان جسدي" يلح عليه دائما، ويهدده بأن النقصان حليفه في كل شئ.

أجزاء دهر ينقضين، ولم يكن بيني وبين جميعهن جوار
يمضي كإيماض البروق، ومالها مكث فيسمع أو يقال حوار[3]

وقضايا أبي العلاء الميتافيزيقية تحتل موقعا حيويا هاما من نفسه وفكره لأنها تتصل اتصالا وثيقا بمعني الحرية التي حرم منها، لذلك نجده يلح علي أن الوقت طائر لا يرجي أيابه ابدا[4] ولا يرمي ولا يصاب بينما يهيمن علي الإنسان، علي قدرة الإنسان المحدودة[5]" وهكذا، وخلال كل يوم من أيام الحياة العادية، يحملنا الزمن، ولكن تأتي لحظة، يكون علينا نحن أن نحمل الزمن فيها".[6]

وقد وقف أبو العلاء قبالة المشيب، ورآه علامة انتصار الزمن علي الإنسان، وبث من خلال هذه الوقفة كل مشاعر الحرمان من الحياة، والخوف،

---

(١)ل١/ص ٣١٦.
(٢)ل٢/ص ٨٢. المقر : المر
(٣)ل١/ص ٣٣١.
(٤)ل١/ص ٤٩.
(٥)أسطورة سيزيف/ص ٢٢.
(٦)ل١/ ٢٤٩.

والسخط علي الزمن:

أصاب جمرى قرّ، فانتبهت له والنار تدفئ صيفي حين أدفنها

وفي " فصوله وغاياته" يغبط أبو العلاء من مات شابا حيث لم يعبث به المشيب، ولم يأكل من كرامة وجوده الإنساني، ولم يمت شيبا قبل موته الحقيقي[1] فالموت رحمة لأي كائن لأنه انقاذ من غوائل الزمن وفعل الأيام

والشيب عزلة عن الحياة[2] لأنه انفصال عن حيويتها واشتعالها، وهو طريق إلي الموت في ذات الوقت... وحين ينظر أبو العلاء من خلال هذا المعني إلي الحياة يجد الإنسان في عمومه شبحا في الوجود:

ريع اللبيب من المشيب لأنه مازال يؤذن بانتقال جوار
تلك النسور من الوكور طوائر ومقادر من فوقهن طوارى
أشباح ناس في الزمان يري لها مثل الحباب تظاهر وتوارى[3]

والخوف من الزمن لا يترك أبا العلاء في سياق تفكيره في الحياة، فهو ينظر إلي تلك الحياة بعين بشريته الفزعة وإدراكه الفردي الضعيف اليائس، فيتلهف علي أن تكون الحياة مكتملة، وأن يكون فيها فتيا شرخا مالكا أدوات القوة والنماء:

زعموا لي أنني سأرجع شرخا كيف لي، كيف لي وذلك التماسي

الصراع بين حب الحياة، وذم الحياة في شعر المعري:

نظر أبو العلاء المعري إلي الحياة بعين عجزه وحرمانه، فوجد الإنسان يأتيها مجبرا، ويعيش فيها شقيا أو سعيدا دون إرادته، ويشقي بالصراع بين الغريزة والروح، منتهيا به الأمر إلي أن يجبر علي اتيان القبائح لأنه خلق ناقص ضعيف، وخلال هذا الصراع، وغيره من الصراعات- يمضي الزمن بالإنسان، ويقذفه إلي هوة الموت.

إن حياة أبي العلاء المعطلة، وقواه المتوقفة لابد أن ترديه في تفكير

---

(١)الفصول والغايات/ ص ١٤٤.
(٢) الفصول والغايات/ ص ١٥٧ .
(٣)ل١/ ص ٤١١

منفعل متواصل، وهذيان ساخط، فالإنسان- أي إنسان إنما هو كائن تقوم حياته، ويكون تمييزه بالإرادة والفعل "فإذا اعترض طريق الإرادة معترض، تولد عن ذلك الشقاء، ونحن نلاحظ أن الشقاء يزداد حدة وشدة، تبعا للارتفاع في سلم الكائنات حتي يصل إلي أعلي درجاته عند الفرد العبقري، ومعني هذا الارتباط أن الإنسان كلما نفذ إلي أعماق الوجود الفي أن ماديته الأصلية هي الشقاء، ورأي وجوده ما هو إلا سقوط مستمر في الموت[1].

والعلاقة بين الإنسان معطل القوى، وحياة شحيحة قبيحة في عينيه، لابد أن تكون علاقة شائهة قائمة علي الذم المتواصل، لذلك يحتل ذم الحياة في شعر أبي العلاء قمة عالية[2] حيث لا يري الحياة إلا خوفا دائما وتهديدا للعلاقة التي أدرك حقيقتها:

وأمن دنياك من جهل تولده وصاحب العقل فيها خائف وجل[3]

ولأن جذور الحياة دنسة فهو لا يفتأ يطلب الطهور، وهذا الطهور هو انعكاس لرغبة أبي العلاء في الانفصال عن الحياة، والتنصل من تبعتها:

تخشي الحياة، ودنيانا وإن عشقت مثل الوطيس تلظي ملؤه سعر
مازلت أغسل وجهي للطهور به مسيا، وصبحا وقلبي حشوه ذعر

وإن القلب الممتلئ- المحشو- بالذعر ليصور عزلة صاحبه وتر حياته، والرغبة في الطهور، أو الانفصال عن الحياة لا تتأتي إلا بمقاومة الحنين إليها أولا، لذلك يتظاهر أبو العلاء بأنه قد قنع بأن الحياة لا تناسب الحي[5] وأن ثوبها عار عليه ودنوها منه يصيبه بخوف ملازم مضن[6].

لم يدرك أبو العلاء إن ذمه الشديد للحياة مظهر قوي من مظاهر تعلقه بها، وإن محاولات نفي قيمتها تعكس ضعفه الشديد عن تركها ومقاومتها، لأن "الأمل لا يمكن تجنبه إلي الأبد، وأنه يستطيع أن يقلق حتى أولئك الذين أرادوا

---

(١) فؤاد كامل الفرد في فلسفة شوبنهور دار المعارف ١٩٦٣مص٨٦ بتصرف
(٢) صلاح عبد الصبور، قراءة جديدة لشعرنا القديم، منشورات اقرأ، بيروت لبنان، ص ٢٥
(٣) ل٢/ ١٨٢
(٤) ل١/ ٣٠٩، ٣١٠.
(٥) ل١/ ٣٥١
(٦) ل١/ ١٣٤

ار يتحرروا منه[1] أو يتمردوا عليه، ففي طيات التمرد والسخرية تبدو مشاعر أخرى علي النقيض منهما رغم كل محاولات التهرب يقول مخاطبا الحياة:

إني ذممتك، فاشهري أو اشرعي لا أرهب المعمور، والمركوزا

عشت السليم، وما عنيت سلامة لكن بسمك مرهفا منكـــوزا[2]

إن الحياة في وجدان أبي العلاء تحمل الأحياء ميسم عذابها[3] بما شكل تبريرا معقولا كي يطالب بالاغتراب عنها أو ينادي بـ:

---

(١) أسطورة مزيف/ ص ١٣٢

(٢) ل٢/ ص ٦ المركوز الرمح، المعمور/ السيف المنكوز من لدغته الحية

(٣) ل١/ ١٢٥

obeikandl.com

"العيش في الموت"

أو

"الموت في العيش"

ومن عاين الدنيا بعين من النهي فلا جذل يفضي إليه ولا كبت[1]

وهنا يدخلنا أبو العلاء قهرا إلي حديث عن تعقد نظرته إلي الحياة والموت والزمن وكل الأطراف الميتافيزيقية التي تساهم في خلق اغترابه، نقول أن أبا العلاء لم يذم الحياة، بل ذم الموت، لأن الحياة التي يشكوها في شعره، ليست حياة بل موت، فهو يصف حرمانه منها ويصف وجودا منطويا علي موت.

أبو العلاء ذم الحياة التي لم تعطه عيشا مكتملا، وذم الحياة الحاوية علي الموت- من وجهة نظر ميتافيزيقية-، فنحن "إذا كنا كثيرا ما نخشي الحياة نفسها، فما ذلك إلا لأننا نشعر، بأن استمرار الحياة هو في صميمه انقضاء للزمان، وانقضاء الزمان معناه السير الوئيد نحو الموت، أو الانحدار السريع نحو هاوية العدم، ولعل هذا هو ما حدا ببعض المفكرين إلي القول بأن الحياة إنما هي الموت نفسه، لأن الإنسان يشرع في الموت بمجرد ما يولد، وهذه الفترة المحدودة التي يحياها، إنما هي المدة التي تستغرقها عملية وفاته."[2]

تتداخل إذن قضايا أبي العلاء الميتافيزيقية، فتتعقد مشاعره تجاهها، وتتعقد مواقفه، لكنها كلها مشاعر ومواقف حميمية الانتماء إلي شاعر مغترب

وهذا الموقف المركب يفسر موقف أبي العلاء من الموت الذي يصبح انتماءه الوحيد حين تثقل عليه الحياة، ويصبح جحيمه العظيم حين تثقل عليه شهوته إلي الحياة.

الموت يؤرق ذاكرة الإنسان الأول، حيث دفعه إلي شجرة الخلد، طمعا في "ملك لا يبلي"، وأنزله إلي الأرض يعمرها، ويزينها في محاولة نبيلة لمقاومة هذا الموت، وتجنبه.. وقد أدركت كل الأديان السماوية قيمة الإنسان وبشاعة الموت في عينه، ومن هنا فقد اجتمعت كلها علي تحريم قتل النفس،

---

(١) ل١/ ١٤٩

(٢) زكريا إبراهيم مشكلة الانسان/ ص ١١٨

حيث يشكل الموت أكبر المواقف الحدية التي تهدد الوجود البشري، وتقف دون استمراريته وبزوغه.

وقد وقف الشاعر الجاهلي كثيرا أمام معني الموت، حيث لتطوت الصحراء علي ألوان شتى منه: انقطاع المطر، غياب الحبيب، انعدام الكلأ الرحيل المستمر، الحروب المتواصلة، تقلب مزاج الصحراء.. إلي آخر ذلك بما يجعل من الزمان، والمكان تهديدا دائما للشاعر الجاهلي خاصة، والإنسان العائش في العصر الجاهلي عامة.، وقد ظل الطلل إلي يومنا هذا، يعكس شعور الجاهلي، بالموت والحياة، ويعكس نظرته الإنسانية إلي الوجود.

ولقد لفت نظر أبي العلاء هذا الطلل، فرأي فيه لونا طريفا من التناسخ، هو تناسخ موقف البشرية من الموت، ورثاء الحياة[1] فكأن التاريخ الإنساني يعيد ذاته في هذا الطلل ، فالطلل شاهد على رعب التاريخ الإنساني من الموت .

وقد اختلف موقف الشاعر العباسي من الموت، عن موقف الشاعر الجاهلي اختلافا جوهريا، حيث أدت الحياة المعقدة، والثقافات المختلفة، والاختلاط العنيف بين الأجناس والأديان والمعارف واللغات- أدي كل ذلك بالشاعر العباسي إلي أن يري وجوده البشري بعين الفكر العميق القائم علي الثقافة المعقدة، والرؤية التأملية المغذاة بالمعرفة، لا النابعة من الفطرة فقط.

فإذا بالشاعر العباسي يري وجوده متناهيا في كون لا متناه، ويري ذاته ضئيلة الحجم بالقياس إلي هذه الأطراف المترامية حوله.

وقد أشرنا- سابقا- إلي موقف بعض الشعراء العباسيين من الموت، ونظرتهم إليه، فإذا جئنا إلي شعر أبي العلاء المعري نراه قد أفرد جزءا كبيرا منه- ومن إبداعه عامة- لطرح موقفه من الموت.. هذا الموقف الذي خلقه شعوره الدامي بالعجز والنقصان.

---

(١) يقول المعري.

مضي الواقف الكندي والسقط غابر   صاحت ديار الحي أين لبيد

تولي ابن حجر لا يعود لشأنه   وطالت ليال والمعالم بيد

الموت في شعر أبي العلاء: قمة القضايا الميتافيزيقية.

تفاقم إحساس أبي العلاء بعجزه الجسدي، ليصبح موقفا إنسانيا من الوجود، وقد حظي سقط الزند بكثير من مراثي أبي العلاء الإنسانية العالية ، من هذه المرثيات في الفقيه الحنفي، التي لا زالت تلفت الأنظار إليها، لأن أبا العلاء وقف فيها علي قمة الرثاء المتوجه إلي الإنسان في عمومه[1]. بل إلي رثاء الكون كله، وكأنه يرثي المعني المجرد للحياة، يرثي قيمة الوجود المحضة.

كان موت الأب بالنسبة إلي أبي العلاء مختلفا اختلافا كاملا في تأثيره عليه عن موت الأم، فقد كان موت الأب بمثابة الانتباه الأول للموت:

لقد مسخت قلب وفاتك طائرا ... فأقسم ألا يستقر علي وكن
يقضي بقايا عيشه، وجناحه ... حثيث الدواعي في الإقامة والظعن
كأن دعاء الموت باسمك نكزة ... فرت جسدي، والسم ينفس في أنني

كان موت الأب بالفعل هو النكزة التي لمست أركانه المتهيئة للشعور المأساوي، والتساؤل عن الحقيقة، لذلك تمثلت مرثيته في أبيه، بالنظرات الحيري إلي الموت، وبالتساؤل الخائف من كنهه، والوقفة الحائرة أمام مظاهر الحياة، ومظاهر الموت المتداخلة التي تغمض علي الحي.

لكن أبا العلاء توقف عن رثاء الأشخاص بعد أن رثي أمه[2] أي أنه بدأ مرحلة جديدة من الرثاء، ومن النظر إلي الوجود، هذه المرحلة الجديدة هي العزلة، للعزلة في أدق صورة، وأكملها من الناحية النفسية، والمادية، فموت الأم- كما سبق وزعمنا- كان فقدا حقيقيا لبصره، فقدا لجذوره وانتمائه[3]، موت الأم أشعره بغربة خاصة هي غربة فقد الأحبة[4]، وأوقفه علي لون كئيب من الحياة جعله يصدف عنها[5]، وقتل فيه كل محاولة لمهادنة الدهر، أو التزلف

---

(١) د. بنت الشاطئ/ مع أبي العلاء في رحلة حياته/ ص ٧٧.
(٢) أحمد الشايب. أبحث ومقالات/ ص ١٥٧، ١٥٨.
(٣) بن الشاطئ. مع أبي العلاء في رحلة حياته/ ص ١٦٥.
(٤) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي/ ١٠٩.
(٥) د./ طه حسين/ أبو العلاء المعري/ المجلد ١٠/ دار الكتاب اللبناني/ ط١/ ١٩٧٤م/ ص ١٦٣.

إليه، حيث بان له الدهر خؤونا، فاسيا[1]، فكثر في شعره الإحساس بالاغتراب[2]، وكان هذا الإحساس من أهم دوافعه إلي اشتهاء الموت[3]

كان موت الأم هو موت الذات بالنسبة لأبي العلاء المعري، لأنه أمات العلاقة بينه والحياة في عمومها، تلك الحياة التي كان يحاول ترويضها، وإرغامها علي تقبله في آخر محاولة يائسة هي رحلة بغداد، بل كان موت الأم هو موت الإمكانية في حياة أبي العلاء، يقول في إحدي رسائله إلي خاله أبي سبيكة، بعد وفاتها:

"لا آمل بعدها خيرا، ولا أزيد في المحن إلا إيضاعا وسيرا"[4]

والإنسان "يعيش قبل مواجهة اللاجدوي، بالغايات، بالاهتمام بالمستقبل، وهو ما يزال يظن أنه من الممكن توجيه شئ ما في حياته، والحق أنه يتصرف، وكأنه حر، حتى لو كانت كل الحقائق تناقض تلك الحرية، ولكن الأمور تنقلب كلها رأس علي عقب، بعد اللاجدوي، فكل ذلك يصبح كاذبا بطريقة مدوخة بلا جدوي الموت المتوقع، والتفكير في المستقبل، أي وضع الغايات، وتفضيل أمور معينة"[5].

وكان أبا العلاء قد تفرغ بعد موت أمه لمواجهة الظلام، أو أنه واجه الظلام بشكل كامل "فراح يتأمل كل شئ"[6]، ولكن من خلال هذا الظلام ذاته، هذا الظلام الذي أصبح طرفا في ثنائية خالدة في شعر أبي العلاء، هي ثنائية الظلام والنور المساوية لثنائية الحقيقة- وهي الظلام عند المعري- والمستحيل- أي النور من خلال هذا الظلام نظر أبو العلاء إلي "سر" الموت، فلم يره في مظهره الضيق القريب حادثا متكررا تختم به حياته كل فرد، بل رآه علي حقيقته الخالدة العميقة، رآه كما بدأ منذ القدم لبدائة الحكماء وأصحاب الأديان، كما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس وماني: حربا سرمدية قائمة بين قوتين حقيقيتين ميدانهما كل نفس حية، وكل ذرة في طباق الأرضين وأجواز السموات- هاتان

---

(١) نور الدين يوسف/ الشعراء الثلاثة/ص ١٢٧/ ١٢٨.
(٢) ل٢/ ٣٨٧ وذات المعني لذ/ ٧٨، ل٢/ ١٧١.
(٣) ل١/ ٥٨.
(٤) إرشاد الأريب/ من تعريف القدماء/ ص ٨٤.
(٥) أسطورة سيزيف/ ص ٦٦.
(٦) نثر أبي العلاء/ ط١/ ١٩٨٥م/ ص ١٠٨، ١٠٩.

القوتان- هما الخير والشر، هما النور والظلام، أو هما الحق والباطل، أو هما البقاء والفناء"[1].

فقد صب أبو العلاء في رؤيته للموت، كل رؤاه لقضايا الجبر، والخير والشر، والصراع بين الروح والمادة، وفلسفة الزمن الميتافيزيقية، وقد ألف أبو العلاء رسالته إلي "ملك الموت"[2]، وهي للأسف ليست بين أيدينا لنصف طرحه فيها، وإن كنا نستطيع أن نرى بعض ملامحها في سياق شعر المعري ونثره.

ولأن أبا العلاء نظر إلي الموت من مسافة قريبة- أي من نقطة مساسه به- في فقد البصر وموت الأم وبعض الأحبة، كانت رؤيته للموت رؤية انفعالية مضطربة حادة، فالموت في عمومه لا يعني عند المعري إلا القهر، وفقد التوازن، فهو لم يكن سعيدا في صراعه للقمع مثل سيزيف[3] بل كان غاية في الجهد والسخط.

فبرغم كون الموت الحقيقة الوحيدة في الحياة- الوحيدة التي نعلمها-، فإن أبا العلاء يستشعر تمرد الروح عليه، والتي تعاني الروع في دنوها منه.

"تراع إذا تحس إلي ثراها إيابا، وهو منصبها القراب[4]

وحين يقول أبو العلاء أن القيمة الوحيدة المتحصلة من الوجود هي الموت فإنه لا ينظر بذلك إلي الوجود نظرة سوية مكتملة، لا يراه حياة، وموتا معا، بل يراه موتا فقط:

لو تخل للعيش لما حصلت شيئا سوى الموت يد الناخل[5]

وكأنه بهذا القول يدعو الحياة كلها إلي الموت، منكرا علي الأحياء الاطمئنان إلي العيش، حيث يكون الموت طردية متواصلة، تنال القوى فما بال الضعيف؟.

---

(١) العقاد والمازني/ الديوان/ جـ١/ طـ٣/ مطابع دار الشعب/ ص ٢٢، ٢٣.
(٢) الإنصاف والتحري/ من تعريف القدماء، ص ٥٣٤.
(٣) أسطورة سيزيف/ ص ١٤٣.
(٤) ل١/ ٨١ تحس: تساق القراب: القريب.
(٥) ل٢/ ٢٤٨.

فارقبي يا عصام يوما ولو أنك في رأس شاهق عصاء[1]

أن أبا العلاء حين يصور تخاذل الأقوياء أمام قوة الموت إنما يقوم بعملية تعويض نفسي عن عجزه، وفي ذات الوقت يبرر ركونه إلي العزلة، العزلة بكل صورها،- فهي في كل حال لون من ألوان الموت-، وكأنه بسط أمامنا مبررات نفض يديه من الحياة، واغترابه عنها.

والموت في شعر أبي العلاء لا يداهم إلا الحياة المكتملة المضيئة، فهو يفاجئ الظبية الرائعة في مراعي الكلأ- المتلألئ بالحيوية:

فالظبية الغيداء صبحها الردي أدماء، ترتع في النبات الأغيد[2]

ويداهم كذلك الأنفس المسرورة بالصباح[3] والحمامة المتمتعة بطلاوة الروض[4] أن أبا العلاء في كل هذه الصور لا يصور إلا إقباله الظامئ علي الحياة الذي ووجه بالعجز والعماء والتوقف، فيؤكد من خلال هذا الصراع أن الوجود قائم علي اللامنطق، وأنه يرتكن إلى قوانين تهدد الحياة البشرية بما يبرر اغتراب ذاته أمام ذاته .

والحياة كلها يعمها حبل "طويل من الموت،[5] يطول ويقصر حسب الإرادة العليا في الكون.. وحين نعود إلي رأي العلاء في الصراع بين الروح والجسد نتذكر أنه قد وسم الجنس البشري كله بالنقص، والفطرة الفاسدة، وهنا يتكئ في تبريره لقدرة الموت علي هذا الوصف، فالموت قوة لأننا حلفاء نقص:

نموت لأننا حلفاء نقص ويبقي من تفرد بالكمال[6]

لذلك لا تجدي "درع" أبي العلاء في الوقاية من الموت[7] تلك الدرع التي وقي نفسه بها من المجتمع وفساد الحياة، لا تستطيع مجابهة الموت، لأن

---

(١) ل١/ ٤٧، وذات المعني ل٢/ ٣٥٩.
(٢) ل١/ ٢٨٣.
(٣) ل١/ ٣٧٢
(٤) ل١/ ٣٠٠
(٥) ل١/ ٢٢٥
(٦) ل٢/ ٢٣٨
(٧) ل١/ ٤٣.

في وجوده ذاته ما يدل علي أننا نتوجه قدما إلي الموت[1] في رحلة إلي الفناء تتقاسم فيها القافلة البشرية جرعات الموت المتساوية[2].

وعلي الرغم من وحشية الموت، وقدومه الحتمي، فإن لأبي العلاء حاجة فيه.

أسخطه الموت ثم أرضته ... عقباه، فنال الرضا من السخط[3]

هذه الحاجة تجعله يغبط من مات، فهو فائز "ظفر بالفائدة من فاد"[4].

"وما أقسي أن يكون الموت أملا للشاعر، واستدرك فأقول: إن الخلاص بالموت لم يكن أملا لأبي العلاء، بل كان من هنيان أمانيه."[5]

ولابد لأبي العلاء الذي أقعده بصره، وأشعره بدرجة من درجات الموت، لابد له- أن يشتهي الموت حيث العجز موت بطئ قاتل ، يقول:

طال الثواء، وقد أني لمفاصلي ... أن تستبد بضمها صحراؤها
فترت، ولم تفتر لشرب مدامة ... بل للخطوب يغولها إبراؤها[6]

فحين يستبد الواقع بالإنسان، ويسميه العنت، فإنه لا يدفعه إلي اشتهاء الموت فقط، بل إلي أن يهش للموت.. يطرب له [7] إلي حد الشبق، ومراودة فكرة الانتحار، كحلم وأمنية[8].

فالحياة في عين أبي العلاء ليست إلا شقاء متواصل، [9] والدهر ليس من رجاء فيه لأنه دائما يخسف آمال الإنسان[10]، أما الخلاص من كل هذا فهو إماته التكوين الإنساني[11] بالموت المنقذ[12] الذي يصوره أبو العلاء في صورة

---

(١) ل٢/ ٢٧٣.
(٢) ق٤/ ١٤٣٢.
(٣) ل٢/ ٧٧.
(٤) الفصول والغايات/ ٥٤ فاد: مات
(٥) مع أبي العلاء في رحلة حياته/ ص ٢٣٣
(٦) ل١/ ٦٢.
(٧) ل١١/ ٧٣
(٨) الفصول والغايات/ ص ٣٦٠
(٩) ل١/ ٥٩.
(١٠) ل١/ ٢٠٣
(١١) ل١/ ٢٧١.
(١٢) ل١/ ٢٧٣.

صورة ساخرة بردا في الشتاء، دفنا في الصيف[1]

وتلك السخرية الفاجعة لا تبغي إلا تأكيد معني فناء الجنس البشري

إن الذي نظم الأنام قضي له بسلوكه النكبات حتى ينثرا[2]

فالموت ليس معني مجردا يراد لذاته، بل أن الهرب إليه هرب من شقاء الحياة[3]

حين يقول أبو العلاء: أن الموت خير لمن كبرت سنه وعشت عيناه، فإنه يترك لنا تقدير المسافة بين مأساة هذا الرجل ومأساته هو الذي انتفي ضياء العين عنه نيفا وثمانين عاما، كما أنه يؤكد تفسيرنا بأن إحساسه الفاجع بالعجز هو دافعه الأول والأقوى إلي اشتهاء الموت:

والموت خير لمن تأمله من عمر جاري اللعاب مرتعش
لا يقرأ السطر بالنهار وقد كان يجلي كالصقر ثم، عشي[4]

وكأنه لم يجد من أنواع العجز الذي يبرر له- ويبرر به- التوجه إلي الموت إلا العجز الذي يلحق بالعين، وهو صادق في هذا الاختيار، لأنه إنما يصور ذاته التي رأت العجز يسم كل الحياة ويفقدها كل معني، ويملؤها بالتأوه، ونداء الموت.[5]

والعجز يتناسب تناسبا طرديا مع الحرمان، والحرمان داع من دواعي طلب أبي العلاء للموت، بما ينفي عنه أي معني تقليدي للزهد، وأي معني من معاني الانصراف الحر عن الحياة. فهذا الحرمان- كما رأينا سابقا- قيده عند مرحلة من عمره[6] يقيسها بما حصلت يداه، من متع الحياة، فيفجؤه الواقع المرير بأنه لم يتحصل إلا اللاشئ، فيهيب بالموت لشفائه علي نفسه من القناعة بفتات الحياة[7]، واشفاقا علي روحه من الذل.[1]

---

(١) ل١/ ٣٦٦ وذات للمعني ل١/ ٨١.
(٢) أبو العلاء ولزومياته/ ٥٢١.
(٣) ل٢/ ٦١
(٤) ل٢/ ٢٤٥.
(٥) ل١/ ٣٠١/ ل٢/ ١٦٩، ل٢/ ٢٩٨.
(٦) رسالة الهناء/ جـ١/ ص ١٤٣
(٧) الفصول والغايات/ ٤٤٣

"قد عشت زمنا، فما رشت، أبركي يا مطية، فهذا المناخ"[٢]

والداعي إلي عزلة أبي العلاء[٣]، هو ذاته داعيته إلي الموت وهو غياب الماء، أو انصراف الحياة:

لم نهجر الماء إلا بعد تجربة ... لقد شربنا فلم تذهب بها الحرر

لذلك يشترط أبو العلاء- أن جاز الشرط في هذا المجال- أن يكون نقله إلي "مرحلة ما بعد الموت" نقلا إلي سعة من الحياة الأخرى، ومتسعا من القدرة والرحمة، فيخاطب الله راجيا بقوله:

أن كان نقلي عن الدنيا يكون إلي ... خير، وأرحب فانقلني علي عجل

وإن علمت مآلي عند آخرتي ... شرا، وأضيق فأنسا، رب في الأجل[١]

وفي أبيات رائعة يتصدي أبو العلاء لمدح الموت، وبيان فضائله، مفرقا بين الحياة والموت بفارق واحد: الحركة والجهد، فالحياة حيوية وعناء وسعي، والموت همود، وخمول.. ولابد أن يطيب الموت لأبي العلاء إذا كان معناه السكون والراحة من الشقاء، لأنه يداوي جرحه الأول: جرحه من عجز بصره، فالحديث عموما عن الموت يهدده لأنه يساعده علي أن يخفي عجزه في طيات عجز البشرية الكلي قبالة الموت، فيصبح لسكونه وتوقفه مبررا قويا منضويا تحت مبرر سكون الجمع البشري، وضعفه، ويضيع الإحساس بالأزمة الفردية، والشعور بأنه وحده غير فاعل:

يدل علي فضل الممات وكونه ... إراحة حسم أن مسلكه صعب

ألم تر أن الموت، تلقاك دونه ... شدائد، من أمثالها وجب الرعب

إذا انتزعت أجزاؤنا، حط ثقلنا ... ونحمل عبئا، حين يلتئم الشعب

وأمس، ثوي راعيك وهو مودع ... ولو كان حيا، قام في يده قعب

---

(١) السابق/ص ٢٢٤.
(٢) السابق/ص ٤٣٠.
(٣) ل١/ ٣٠٨ الحرر جمع خرة وهي العطش
(٤) ل٢/ ٢٣٠.

"إن الراعي الذي ثوي هو الحياة نفسها، هو أنت وأنا، وهو والوعاء الذي يحمله الراعي هو كل ما يقيم الحياد، ويجعلها ذات مغزي يحرص عليه، أننا نجد الراعي يؤلف صورة قديمة العهد في تاريخ البشرية .، وقد اقترنت النبوات- مثلا- بالرعي، وصورة الراعي علي الدوام، تختصر أكرم جانب في حياة الإنسان، وقد أشار بعض مفكري الإنسان إلي أن اللبن الذي في الوعاء، يرتبط بفكرة الحياة الخيرة والفطرة، ونحن نخزن لأن الراعي قد مات، لأننا نعلم أن الإنسان الطيب القلب انفق حياته في رعاية الإنسان. وظل- حياته- يدعو إلي السلام والنقاء، ولكن "الموت" أدركه، ولم يكن أبو العلاء إذن يفكر تفكيرا خالصا للمنطق، أو وحدة الجهة، وإنما يفكر تفكيرا مزدوجا، ويتوزع النص بين ظاهر وباطن، ... فأبو العلاء يمزج بطريقة ما- بين طريقين- في النظر إلي الموت، يقول أبو العلاء إن الموت ذروة الحياة المجدة. فالحياة بمعناها الحقيقي فعل مستمر، ولا شك أن أبا العلاء فكر كثيرا فيما درج عليه معظم الشعراء من قبله، حين نظروا إلي الموت علي أنه هزيمة للحياة، ولكنه كان أوسع أفقا من أن ينتهي إلي الطرف المقابل تماما، لذلك وثب بين الأمرين"[1].

فالموت إراحة من العجز لأنه في عمومه إيقاف لكل قدرة أو عجز.

والموت كذلك إنقاذ من الاغتراب الاجتماعي- كما أشرنا في الفصل السابق- الذي هو لون من ألوان العجز أيضا، العجز عن التواصل مع الأحياء، بل مع البشرية في عمومها.

بطن البسيطة أعفي من ظواهرها فوسعا لي أهرب من سعاليها[2]

إن عزلة أبي العلاء في بيته لم تعد كافية لتسد عليه منافذ اشتهائه للحياة، إذ اخترق هذه العزلة إلي الخارج بحواسه جميعا، وظمئه إلي الحياة وإلي الأحياء، لذلك لم يعد أمامه إلا الموت منجي من هذا الاشتهاء وهذا الحرمان، إن القبر أروح المنازل وأكثرها إيناسا.

أعفي المنازل قبر يستراح به وأفضل اللبس فيما أعلم الكفن[3]

---

(١) د / مصطفي ناصف. دراسة الأدب العربي/ص ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥ بتصرف
(٢) ل١/ ٩٣ وذات المعني بطريقة الاستدلال ذاتها ل١/ ٤٠٨
(٣) ل١/ ٤٢٢ وذات المعني ل٢/ ١٦٣.

وكان أبو العلاء دقيقا في قوله: فيما أعلم، فهو لم يخبر من متع الحياء شيئا ليكون حكمه عاما عليها، وفي ذات الوقت هو يجعل من جهله وعدم درايته برداء الحياة داعيا منطقيا إلي اشتهاء رداء الموت، إذ لو ذاق الحياة الصحيحة ما تاق إلي الفناء بل كانت تصالح مع الحياة ومع فكرة الموت أيضا .[1]

إن كل دوافع الموت جعلت أبا العلاء يظن بنفسه القدرة علي تحمل عواقبه، وبشاعة لهوه بالتكوين الإنساني[2] – رغم أن هذا اللهو ذاته سيكون من دواعي خوفه من الموت كما سنري بعد ذلك- إذا يكفيه أن الموت يقيه شر الصراع مع المجتمع[3] حتى أنه رغم قوة الموت- يوصي مؤكدا رغبته في اعتزال الأحياء بعده، فهو لا يريد منهم ما يعتاد من زيارة القبور والترحم علي الماتت[4].

الموت، أو الانتماء إلي الموت اغتراب عن الحياة، وقد أكد لنا أبو العلاء أنه يعيش كظل[5]، وأنه لا ينتمي إلي الحياة بأية صلة:

جسدي خرقة، تخاط إلي الأرض فيا خائط العوالم: خطني[6]

الاغتراب هو اختلال موازين الحياة في عين المغترب، هو عبثيه المقياس، لذلك يتعامل أبو العلاء في شعره مع الحياة بمنطق معكوس يري فيه الموت، وجودا ، وعيشا أصيلا، يري العيش تواجدا مزيفا واغترابا:

عيشي سلتي، ورمسي غمدي فاقربوني منه، ولا تقربوني[7]

إن لوذ أبي العلاء بالموت، هو ذاته الالتجاء إلي العزلة المادية، إذ كل منهما هرب من مواجهة الحقائق، وعراك الشقاء، كلا منهما يمثل الظلام لأبي العلاء، ذلك الظلام الذي صاحب عينيه طويلا، وجعله يظن في الليل الطمأنينة والسكينة والعوذ للخائفين الضعفاء، حيث النهار مواجهة وفعل وحركة تتكأ جرح العجز:

---

(١) ل٢/ ٣٤٣
(٢) الفصول والغايات/ ص ١٥٧ وذات المعني ٦٨.
(٣) ل٢/ ٣٦٨
(٤) ل٢/ ٩٠
(٥) ل٢/ ٢٤٨.
(٦) ل٢/ ٣٩٥.
(٧) ل٢/ ٣٩٥

وإذا النهار خشيت منه غوائلا   فعليك من ليل يعينك حندسا(١)

والمانتون لا يصارعون ثنائية الليل والنهار، او النور والظلام، أو العجز والقدرة، أو الإغماض والوضوح، لذلك فحين يرسل أبو العلاء إلي أمه وأحبائه سلاما في دار الموت يحمله حسده إياهم علي هذه النعمة:

"سلم الله عليكم أهل ديار، لا يشعرون بتبليج الصبح، ولا ترجل النهار."(٢)

إن الحياة المشتملة علي الجبر(٣)، الخاضعة لقوة الزمان(٤)، السائرة قدما نحو الموت، هذه الحياة حياة تدعو إلي اشتهاء الموت، لذلك "يكشف شعر أبي العلاء عن الغياب الأصلي في الحياة، فالحياة غائبة جوهريا، لا الآن وحسب، بل أمس، وغدا، فليس العالم والتاريخ إلا سلسلة من الغياب الدائم الحضور، وليس الإنسان إلا سقوطا متتابعا ينتظر نهايته، هكذا يستعجل أبو العلاء الموت، كأنه يرفض وجودا يحدده الانتظار"(٥) أو كأنه يطلب الموت هربا من التفكير في مشكلة الموت المعقدة(٦) ورفضا لهيمنة الجبر.

حين أراد أبو العلاء أن يصور قيود الموت ومظاهره، وتسلطه علي حياة الحي، لم يجد أدق من "البرة" أو قطعة الحديد التي توضع في أنف البعير، تلك البرة لم تأت إلي خياله عبثا، بل أتت من انفعال حقيقي ومعاناة أصيلة من قيود الموت، والبرة لا توجع إلا الأنف، الذي لا يمثل شيئا هنا قدر تمثيله للانفة والكبرياء الإنساني ، أما البعير فهو شديد الشبه بالمغترب الذي يحمل فوق ظهره كل قضايا وجوده عامة، وهو يشبهه أيضا في محدودية إدراكه، وخنوعه للركل والسياط، وانحناءة رأسه الدائمة، وظهره المثقل دوما، وسيره المتواصل دون كلل أو نهاية.

.. إن "البرة"- حين يكشف لنا أبو العلاء في أبياته ما تمثله له- نراها تتمثل رمزيا في كل أركان الوجود التي تثقل علينا: الزمان والمكان: الليل

---

(١) ل/٢/ ٣٢.
(٢) الفصول والغايات/ ص ٥٢.
(٣) ل/١/ ٩٥.
(٤) الفصول والغايات/ ص ٤١٩.
(٥) أدونيس/ مقدمة للشعر العربي/ ٦٣، ٦٤.
(٦) د. مصطفي ناصف/ دراسة الأدب العربي/ ص ٣٣٨، ٣٣٩.

obeikandi.com

والصبح، القيظ والقر . ال . و وانها تنال من أنف الإنسان، من شممه.

مالي بما بعد الردي مخبرة قد أدمت الأنف هذه البرة

الليل والإصباح، والقبط والإيراد، والمنزل المقبرة

كم رام سبر الأمر من قبلنا فنادت القدرة: لن تسبره

عشنا وجسر الموت قدامنا فشمر الأن لكي تعبره[1]

الموت في نظر المغترب قد يكون تحررا من كل شئ، لأن وجوده في الحياة قيد "والإنسان اللامجدي كذلك الذي يتجه تماما إلي الموت الذي اعتبره هنا أشد الأمور اللامجدية وضوحا، تشعر بالانطلاق من كل شئ خارج ذلك الانتباه المنفصل المتمركز فيه، أنه يتميز بالجبرية، بالنسبة للقواعد المألوفة"[2].

وكأن الاغتراب الحقيقي لأبي العلاء، إنما كان اغترابا عن الحياة، وكان انتماءه الأصيل إلي الموت، وهذا ما حدا به في بعض الأحايين أن يبث رغبته في أن يتخلص بيده من حياته[3] لأنه- كما يقول الوجوديون- "لا يشعر أنه في بيته":

ابني بجهلي، دارا لست مالكها أقيم فيها قليلا، ثم انصرف[4]

وهنا لا يصح ألا الرسو علي شاطئ الموت انتماءا، واقتناعا حقيقيا.

كأنا في السفائن عائمات وعند الموت ألقيت المراسي[5]

خوف أبي العلاء المعري من الموت، ودواعي هذا الخوف:

ان موقف أبي العلاء المزدوج من الحياة، ينتج موقفا مزدوجا من الموت أيضا قطعي الرغم من ترحيب أبي العلاء بالموت، واشتهائه له، فهو يقف منه في كثير من الأحيان موقفا مغايرا هو الهلع الشديد والكراهية، وهو يصف هذه المشاعر بأنها قديمة في نفسه

---

(١) ل١/ ٣٦٩

(٢) أسطورة سيزف/ ص ٣٦

(٣) العصول والغايات/ ص ٣٦٠

(٤) ل٢/ ١٠٢ وذات المعني ل٢/ ١٠٣

(٥) ز٢/ ٤٦

قديما كرهت الموت، والله شاهدي وقد عشت حتى أسمحت لي قرونتي

وأحسبه لو جاءني لأبيته ومن عند الله نصرتي، ومعونتي

ولم تأت هذه الكراهية، أو لم تتعمق وتتخذ صفة القدم-، إلا من مواجهة الموت متمثلا في فقد البصر الذي حال بينه وبين الحياة، لذلك فكما كان اشتهاء الموت مدفوعا بالحرمان من الحياة، يكون الخوف من الموت مدفوعا بحب الحياة والرجاء فيها.

وصدقت هذا العيش في حبي له واغترني بخداعه، وكذابه

وجنبت من مرسي الحياة مغارة فالآن أخشي البت عند جذابه[1]

فالمنطق الوحيد الذي يفهمه أبو العلاء، هو أنه لابد أن يعيش[2] أولا قبل أن يموت، وهو لم يعش بعد، ولم يدرك من الحياة شيئا، فكيف يجرؤ الموت عليه، لذلك تضطرب حياة أبي العلاء النفسية في انتظار هذا الأمل: أن يحيا: "كم أعذر ونكث، أمل أنني أمكث، والمنية أخذه بالناصية أخذ الأسير بناصية الأسير".[3] ويدرك أبو العلاء متألما يدرك كل حي غيره، أن الموت نهاية كل طموح [4] فيتساءل لماذا لا نستمر عائشين في الحياة دون أن نبتر؟[5] يقول:

ما أطيب العيش عند قوم لو أنه كان لا يزول[6]

فحب الحياة دافع لكراهية الموت، ووجود للموت قوة متسلطة حقيقية دافع للخوف من الحياة، والتظاهر بكراهيتها، فهي عيش مهدد بالزوال[7] ويقع أبو العلاء بين هذين المنطقتين، وهو ممتلئ بالرغبة في أن يشارك الأحياء بنصيب في تعمير الكون[8] فكأن حب الحياة وحب الموت كلاهما حب للحياة، وكأن الإقبال علي الموت والخوف منه كلاهما انصراف عن الحياة.

---

(١) ل٢/ ١٧٠، ١٧١.
(٢) ل١/ ١٣١.
(٣) الفصول والغايات/ ص ٢٤٣.
(٤) السابق/ ص ٢٤١.
(٥) السابق / ص ٤١
(٦) ل١/ ٢٤٣
(٧) الفصول والغايات/ ص ٢٢٣.
(٨) العزلة والمجتمع/ ص ١٨٠

الحياة.

"فإن الشخص الذي ينصرف عن الموت لكي لا يستمتع بالحياة علي حير وجه، إنما ينصرف في الحقيقة عن الحياة أيضا، لأنه إذ يريد أن يتناسي الموت، إنما ينتهي (كما قال لا فل) إلي نسيان كل من الموت والحياة[1]

ويصف أبو العلاء ببراعة ودقة متناهية، وقوعه بين هذه المتناقضات، أو هذه المناطق النفسية المتصادمة، مصورا في ذات الوقت إقباله علي الحياة بأنه إقبال "طائر" فرح، بادره الدهر بالعجز وهو لا يفي مبكرا، فكأن حياته علي امتدادها لم تكن إلا موتا مختلف الألوان:

وأبك علي طائر رماه فتي ... لاه، فأوهي بفهره الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت ... فظلت فيها كأنما نتفا
بكر يبغي المعاش مجتهدا ... فقضي عند الشروق، أو نتفا
كأنه في الحياة ما فرع الغصن ... فغني عليه أو، هتفا[2]

ولا نستطيع أن نغفل الدلالة التي يقصدها أبو العلاء من الصراع بين الفتي اللاهي والحيالة التي نصبت، وفعل القص لجناح الطائر، إن هذه الدراما لتصور ما يستشعره أبو العلاء من مأساوية المصير الإنساني، ومن أن الكائن البشري كائن مهان مبعثر من قبل قوي تتحكم فيه وتسيمه الخسف، ولا نستطيع تجنب ما تلمح إليه من معاني صراعه مع العماء.

ويتعقد معني كل من الحياة والموت عند أبي العلاء، ليصل به الأمر إلي حد أن يري أن إفراط الحي في النهل من الحياة طريق إلي الموت[3]، وكأنه كان مشغول بتبرير تركه للحياة- أو علي الأدق عجزه عن مجاهدة عجزه فيها- بأنه إنما كان يتهرب من الموت ويؤجله، حيث الهدم متزاوج مع البناء، والظما لصيق بالري، والخوف الشديد من الموت إقبال عنيف علي الحياة، وهجر الحياة أيضا خوف شديد من الموت، فالحياة هي الحياة راء كل قصد. أو هي قصد أو حد وراء كل فعل ودلالة.

---

(١) مشكلة الإنسان/ص ١٢٢
(٢) رسالة الهناء/ص ٧٧، ٧٨
(٣) حديثة أبي العلاء/، ص ٨٤.

والعامل الثاني وراء خوف أبي العلاء من الموت وكراهيته له هو:

إحساسه بحتمية الموت، وطراده، وكونه حقيقة مطلقة مستبدة بوجود الإنسان، قوة متسللة غادرة[1]، فالموت مطارد لحوح لزج، مدرك له أينما كان:

وما نوب الأيام إلا كتائب تبث سرايا، أو جيوش تعبا[2]

والموت يواجه الإنسان في شعر المعري في سياق يبدو وكأنه سياق قتال، وكما المحنا فإن الدرع هنا تنتحي[3]، حيث لا تفيد المحارب بل حيث لا يفيد أي نوع من الحماية والهرب[4]، "الموت غيمة تطارد الإنسان، الحياة نفسها موت فوق الأرض، أو هي غيمة الموت" كما يقول أبو العلاء المعري: هذه حقائق، فماذا يفيد نسيانها أو تجاهلها، من هذا التساؤل تنطلق تجربة أبي العلاء.[5] ومن هذا التساؤل ينبع تخبطه بين إدراك معاني الحياة ومعاني الموت، وينبع تخبطه بين الانصراف عن الحياة، والموت، والإقبال علي الحياة، والإقبال علي الموت.

ويتملك أبو العلاء خوف "ميتيري من الموت حين يفطن إلي أن طعام الإنسان وكل ما يقيم أوده مشتملا علي الموت، فحشا الأرض ذاتها موت، ولا عجب من ذلك، فالأرض تلدنا، وتقبرنا في ذات المكان والزمان المشتملة عليهما: "لا يأمن الحبط من السبط، فالمنية في كل نبات"[6].

والوعل الذي يفر من البرد إلي الدفء، إنما يستدفئ بالموت ويهرب إليه من حيث لا يدري[7]إن العالم كله في هذه الرؤية العلائية فريسة، ضأن لابد من يوم لذبحه:

---

(١) ل١/ ٢٣٢.
(٢) ل١/ ٣٨.
(٣) ل٢/ ٢٤٩ وذات المعني ل٢/ ٢٠.
(٤) ل١/ ٣٣٥، ل١/ ٧٧.
(٥) مقدمة للشعر العربي/ ص ٦٠/ ٦١.
(٦) الفصول والغايات/ ص ٢٧٠ الحبط: انتفاخ يصيب الضأن من أكل العشب، السبط: نوع من النبت أو الشجر
(٧) رسالة الهناء/ ص ١٣١/ ١٣٢

كأنما العالم ضأن غدت للرعي، والموت أبو جعدة[1]

وفي أبيات رائعة يصف أو العلاء ملحمة الصراع الإنساني مع الموت، مستعرضا كل الطرق الإنسانية التي ابتدعت لمقاومته ، أو تجنبه أو حتى محاولة تأجيله، لكن الأبيات ترينا إنها طرق للهزيمة لا للنجاة حيث لا يشفع للإنسان هربه إلي الكواكب، ولا احتماؤه بمسام الليالي، أو بدفء المال، أو بحصانة العلم والمعرفة، فالليل حارس مهيمن علي كل الوجود:

لو أن سواد كيوان خضاب يكفيك، والسهي في الأذن حب
لما نجاك من غير الليالي سناء فارع، وغني مرب
وما يحميك عز، إن تسبي ولو أن الظلام عليك سب
أري جنح الدجي أوفي جناحا ومات غرابه الجون الهرب
فما للنسر ليس يطير فيه وعقربه المغبة لا تدب
أيجلو الشمس للراني نهار فقد شرقت، ومشرقها مضب
ولم يدفع ردي سقراط لفظ ولا بقراط حام عنه طب

إن السواد "الليالي، الظلام، جنح الدجي، الشروق المضب" كانتات هيمنة الظلام في الأبيات السابقة، وتؤكد إلي حد كبير سيطرة الظلام المادي والمعنوي علي حياة أبو العلاء، الظلام بكل ألوانه، مما دفعه إلي الخوف من هذا الظلام، والالتجاء إليه في شعور مركب يفسر لنا كون العزلة والموت عالمين دافئين للمعري في كثير من الأحيان.

وكما يحلو لأبي العلاء أن يصور نفسه طائرا رمي بالعجز، رصيد بالحبالة، يحلو له أيضا في مواجهة قيوده الميتافيزيقية أن يصور نفسه وعلا شابا لا يفيده الاعتصام من الموت[2] والقضاء المحتم، أو يصور نفسه سلكا ضئيلا لا يشفع له تضاؤله قبالة الموت[3]

والصورتان متناقضتان، فإذا كان الوعل الشاب يشير إلي القوة والمنفعة والحيوية، فإن السلك المتضائل يشير إلي العكس من ذلك، وكأن أبا العلاء في تشبيه نفسه بهما- كل علي حدة يريد أن يبث شماتته في كل قوى ينال

---

(١) ل١/ ص ٢٦٢
(٢) ل١/ ص ٨٩.
(٣) ل٢/ ص ١٥٥

منه الموت ويعجزه، أنه سلوك التعويض النفسي غير المباشر.

والموت في شعر أبي العلاء- أو هو كذلك بالفعل- لا تجدي أمامه الرقي، ولا يشفع عنده بطول العمر، بل إن طول العمر علي امتداده غير مجد، لأنه مختوم بالموت، مشتمل علي أعظم قدر من سكراته:

رقتني الراقيات، وحم يومي ... فغادرني كأني مارقيت
هبيني عشت عمر النسر فيها ... وكان الموت آخر ما لقيت[1].

ويصور المعري اقتدار الموت علي الإنسان في صورة قافلة تكلي، مرغمة علي تجرع كؤوسه، ويصور للموت عاشقا صبا في الحاحه وصبره[2]، إنها طردية غاية في الكآبة.

مرحلة ما بعد الموت وما قبل البعث:

ولنقل: مرحلة القبر، وهي من العوامل الرئيسية وراء خوف أبي العلاء من الموت، فغموضها وحده كان كافيا لإثارة فزعه ووساوسه واضطرابه:

تخالفت الأشياع في عقب الردي ... وتلك بحار ليس يدرك عبرها[3]

ومنطلق هذا الفزع إدراك أبي العلاء عدم اختلاف الموت عن حياته الضيقة.

هي النفس تهوي الرحب في كل منزل ... فكيف بها إن ضاق في الأرض قبرها
ولخر عهد القوم بي، يوم تنطوي ... طي جرور الورد يكره زبرها
فهل يرتجي خضر الملابس ظاعن ... وقد مزقت في باطن الأرض غبرها

إن أبا العلاء ينظر إلي الموت بعين سجونه أو محابسه ينظر إليه بعين عجزه وعزلته ووحدته، فالموت قيد لا حرية، وحين يهال التراب علي المائت يصبح طوع ما يحدث له، فلا يملك له ردا، يخشى المعري من الموت لأنه عجز أيضا:

يهال التراب علي من ثوي ... فـــآه من النبأ الهائل

---

(١) ل١/ص ١٥٩
(٢) ل١/ص ٥٦
(٣) ل١/ص ٣٠٤

وكم قيد الدهـــر من دالف وقد كان السابق الجائل[1]

كيف إذن يكون اقتدار الموت علي العاجز الضعيف؟ هذا هو السؤال الضمني في الأبيات، وتلك قضية أبي العلاء الأساسية في كل شئ: عجزه المواجه لكل الأشياء، ضعفه قبالة كل القوى.

ونحن إذا نظرنا إلي مخاوف أبي العلاء من مرحلة القبر، وجدناها لا تختلف عن مخاوف ضمير كل إنسان منا، الفارق بين الجميع هو مدى قوة هذه المخاوف، أما أبو العلاء فيراها في صورة مكثفة مجسدة لمحوح، يري الموت استباحة لكيان الإنسان، نزعا لخصوصيته، سلبا لقيمته:

من للدفين بأن يفرج لحده فيقوم منه، وهو أشعث أغبر[2]

والموت يهيل التراب علي أنف الإنسان، نائلا من شممه، وعزته:[3]

والموت يسلب ما في الأنف من شمم تحت التراب، وما في الحذ من صعر

والأرض تأكل أبناءها، بعد أن كانت رحم تخليقهم ونمائهم[4] الأرض لا تفرق في افتراسها بين الليوث والضأن، مما يفقد أبا العلاء الإحساس بالمنطق والأمان والجدوى، في الحياة والموت معا:

وما تشعر الغبراء ماذا تجنه أأعظم ضأن، أم عظام ليوث[5]

فالأرض هي الحياة الغادرة الخؤون، التي تبدل عشاقها، الأرض تبدل ساكنيها بعد التهامهم[6]. وفي المقارنة السريعة بين هيئة الإنسان في الحياة وهيئته أو آماله بعد الموت، تكون الحياة هي الخضاب والزينة واللون، ويكون الموت الوحشة والفقر والجدب

لا أغادي مفارقي بصبيب وأخلي والقفر آل صبيبة[7]

ومثلما كان العجز ركيزة وجع أبي العلاء من الحياة، يكون البلي ركيزة

---

(١) ل١/ ص ٣٠٤ الجرور البئر العميقة زبرها طيها
(٢) ل٢/ ص ٢٥٣
(٣) حديثة ابي العلاه
(٤) ل١/ ص ١٨٥
(٥) ل١/ ص ١٨٨
(٦) ل٢/ ص ١٣
(٧) ل١/ ص ١٠٦

مخاوفه من الموت، ومنطلقه الوحيد في الحكم عليه

تلاق تفري عن فراق تذمه ... مآق، وتكسير الصحائح في الجمع

وشكلين ما بين الأثافي واحد ... وآخر موف من أراك علي فرع[1]

وصورة الرماد هذه لا يصل إليها الكائن البشري إلا بعد أن يمر بـ "مرحلة البلي" أو إذلال التكوين البشري، وأبو العلاء لم تمضه فكرة البلي والفناء بنفس القدر الذي أمضت به البشر وعذبت خيالاتهم[2] بل استشعرها بحدة تفوق مثيلتها عند كثير منهم، لأنه لمس البلي في فقد عينه، فهو فزع علي القياس فالجسد "أرهقته النفس بعد رحلة في الحياة مليئة بالمشقة والألم، وأن له أن يؤوب بعد انعتاقه، وأن يحتضنه مثواه في حرص صارم يبلغ الاستبداد[3]

إن تفكير أبي العلاء في الموت من خلال "فكرة البلي" تفكير فزع من التبديد والغموض والإشلاء والتبعثر[4] يقول "لو غبرت ألف حقبة، ما ورد علي منهم كتاب، و لا رسول، وعندي خبر خبرنيه المعقول، أن جلود القوم تمزقت، واللحوم بليت، وتهالكت، وصارت الأعظم رماما"[5].

لذلك لفتت عادة إحراق الهنود جثث موتاهم نظر أبي العلاء، بل لفتت إليها وجدانه الخائف، ورآها بعين الشاعر المغترب- بعيدا عن العقيدة الدينية- نجاة من البلي وحفظا للمائت من افتراس حيوان الطريق، وعبث الخلاء أو عبث القبر:

فأعجب لتحريق أهل الهند ميتتهم ... وذاك أروح من طول التباريح

إن حرقوه فما يخشون من ضبع ... يسري عليه ولا خفي وتطريح

والنار أطيب من كافور ميتتنا ... غبا وأذهب للنكراء والريح[6]

ويخشي أبو العلاء من : بلي القبر "إلي حد أنه يفضل عليه فعل السباع

---

(١) ل٢/ص ٩٣.

(٢) ق٣/ص ١٣٣٥، ١٣٣٦

(٣) د. صالح البيظي في الرثاء وبانية مالك بن الريب. مجلة كلية الأدب بالإسكندرية/ المجلد ٣٥/ ١٩٨٧م الدار الأندلسية/ص ٤٢.

(٤) قضايا العصر/ص ١٨٧ بتصرف.

(٥) ق٢/ص ٩١٦ ٩٢٥ ٩٢٧، وكذلك في الفصول والغايات/ص ٢٧٨

(٦) ل١/ ٢٢١.

الضاري بالجثة[1] ويجعله عاملا من عوامل اغتراب المائت:

فلا يمس فخارا من الفخرِ عائد | إلي عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرة | فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأخري، وما دري | فواها له بعد البلي يتغرب[2]

وفي طرحه الديني لقضية للموت، يغلب علي أبي العلاء أن يتناولها تناول المسلم الواثق بالله وعد له، ورحمته وعفوه واقتداره، مما يصبغ نظرته إلي قضية الثواب والعقاب- في هذا السياق الديني- بصبغة إسلامية مطمئنة [3] لا بأي صبغة غيرها.. لكن علي الرغم من ذلك كله لا يمتنع أبو العلاء عن وصف خوفه من البلي حتى في هذا السياق:

عودى، يخاف من الإحراق صاحبه | إن قال ربي لأجساد البلى: عودي[4]

ويتساءل عن مصيره، تساؤل الرافض لأي لون منه لا يتسق مع ضعفه أو لا يعوض له عناءه في الحياة:

بعلم آلهي، يوجد للضعف شيمتي | فلست مطيقا للغدو ولا المسرى
أصبح في الدنيا، كما هو عالم | وأدخل نارا مثل قيصر، أو كسرى
إذا راكب نالت به الشأو ناقة | فما اينقي إلا الظوالع والحسرى[5]

وقد يرتدي تسبيحه لله- في بعض الأحيان- رداء البكاء والاستغاثة من بشاعة الموت وإهانته للجسد البشرى[6] وتغريبه له.

أما الروح فحين يأتي أبو العلاء إلي مجال ذكرها فانه يعجب من

---

(1) ل١/ ٢٩٧.
(2) ل١/ ٧١/ ٧٢.
(3) ل٢/ ١٠٣.
(4) ل١/ ٢٧٦.
(5) ل١/ ٦٨، ٦٩ الشأو الغاية للظالع من في مشيته عرج
(6) حديقة أبي العلاء/ ص ٨٨.

أمرها[1] ويراه غامضا، لكنه لا يستبعد أن تكون مقيمة في العذاب شأنها شأن الجسد، بما يتفق مع طبيعتها:

أن يصحب الروح عقلي بعد مظعنها   للموت عني، فأجدر أن ترى عجبا

وأن مضت في الهواء الرحب، هالكة   هلاك جسمي في تربي، فواشجبا

وهكذا يكون الموت في كل مراحله تأكيدا حتميا لانعدام حرية الإنسان، وضآلة اختياره ووجوده: " الموت هو الواقع الوحيد، أما بعد الموت، فالأمر يكون أسوأ، فلست حتى ذلك حرا في إدامة وإبقاء نفسي، وإنما أنا عبد، وفوق أي شئ آخر عبد بدون أمل في الثورة الأبدية، بدون أي لجوء الاحتقار، ومن الذي يستطيع أن يبقي عبدا بدون ثورة، وبدون احتقار، وأية حرية يمكن أن تكون هنالك بالمعني الآتم بدون تأكيد علي أبديتها؟[2]

نوع آخر من الاغتراب يلتصق بالموت، هو الاغتراب عن (الحياة - الوطن) تلك الحياة التي طالما اشتكي منها المغترب، وهرع إلي الموت مدعيا السأم منها، هو الآن – أي أبا العلاء- يري انفصاله عنها بالموت: أغرب الغربة ، يقول : " فارحمني يا رب، إذا أدرجت، ثم أخرجت من الوطن إلي أضيق عطن، وخفت الأليل، واستراح المعلل من التعليل، فالحرب الحرب، وقد أكرمت ووقيت، ثم أسلمت فالقيت، وزوراه بعيدة المزار، مورد من يعرب ونزار، وسكن التربة أغرب الغربة، أن قضت الإعراب من أهل التراب، وغدر بهم أهل الوفاء[3]. فالمائت غريب وأن كانت حياته قبل ذلك كبدا وعنتا:

حملوه بعد مجادل وأسرّة   حمل الغريب، فحطّ في بيت ردم

مازال في تعب وهم دائم   فلعله عدم الأذاة بأن عدم[4]

ومادام الموت أغرب الغربة لأنه رحيل عن الحياة التي تمثل هنا الانتماء والوطن فإن المائت بالطبع، لابد أن يعاني العذاب من فقد الاحبة، وهذا إلا يتناقض مع اغتراب أبي العلاء الاجتماعي، الذي كان في أعلي درجات

---

(١) السابق/ ص ٧٨.
(٢) ل١/ ٩٥.
(٣) أسطورة سيزيف/ ص ٦٧.
(٤) الفصول والغايات/ ص ٢٧.

حدته دليل الاحتياج إلي الآخر، ودليل لهفة إلي الانتماء إليه، لولا مغايرة هذا الآخر للأنا... [1]

أما في حديث الموت فإن هذا (الآخر)، يمثل الصلة، والدفء، والإغاثة من غوائل الموت: " أين أكون بعد البيت المسكون، أحل بالصعيد، لا أشعر بمجمع ولا عيد، وذلك المنزل المنفرد الغريب، والله مؤنس المستوحشين. [2] أن لقاء المائت للموت منفردا اغتراب عميق:

" ألقي وحدي وجعي، لا يموت أحد معي، استغفرك من الموبقات[3]

ويكرر أبو العلاء لفظ الوحدة في هذا السياق كثيرا:

لو أني في عداد الرمل صحبي لأودعت الثرى وتركت وحدى[4]

وهذا كله يؤكد لنا أن أبا العلاء لم يركن إلي العزلة طواعية واقتدارا، بل لجأ إليها متعبا مرهقا مكرها، مطرودا من الحياة، لم يلجأ عن قوة، بل عن عجز كذلك لم يركن إلي الموت إلا تحت ذات الوطأة، فأبو العلاء الذي بثنا في الفصل السابق- في سياق وصفه لاغترابه الاجتماعي- بثنا رغبته أن يعيش في الحياة وحيدا كالمتقارب في دائرته العروضية، يبثنا هنا خوفه من وجوده علي هذه الشاكلة بعد الموت[5] ويفزعه أن القبور لا تأنس ببعضها[6] وأن ليس للمائت صديق. [7]

العامل الخامس وراء خوف أبي العلاء من الموت هو:

مطاردة الموت للإنسان وحده تتمتع الجوامد بخلود نسبي في راي المعري قياسا إلى الإنسان .

أن ربّ الحصن المشيّد بتيما ء تولي وخلفت تيماء[8]

---

(١)ل٢/ ٣٣١.
(٢)الفصول والغايات/ ص ١٦٢.
(٣)الفصول والغايات / ص ١٤٨
(٤)ل١/ ص ٢٧٨
(٥)الفصول والغايات/ ص ٢٣١
(٦)السابق/ ص ٦.
(٧)السابق / ص ١٢٩
(٨) ل١/ ٤٩ الحصن هو الأبلق الفرد بين الحجاز والشام ربه هو السمو أل بن عاديا اليهودي تيماء بايد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى من الحجار

الإنسان ذلك الفرس القوي الذي ملأ الأرض ركضا وتجوالا، حين مات ابتلعته ذات الأرض غير عابئة، ولا يعقل أن تكون قد استشعرت موته، وأست له: قرمتنا الأيام، هل رثت النحّام لما ثوى بها قرماء[1]

الإنسان علي الأرض ليس إلا (النحام): فرس سليك بن السلكة، والأرض في عمومها أو الكون علي اطلاقه ليس إلا قرماء، تلك القرية التي مات بها ومن واقع هذا التأمل يري أبو العلاء الطلل رؤية مبتكرة، حيث يكون الطلل هو الإنسان، وليس المنزل الدارس، أو الديار المتهدمة، الإنسان في رؤية أبي العلاء الطللية هو المعالم البائد في الكون، تاركا وراءه جوامدا من الطبيعة باقية رغم أنها لا تحس، عفية رغم أنها لا تتألم:

مضي الواقف الكندي والسقط غابر وصاحت ديار الحي اين لبيـد

تولي ابن حجر لا يعود لشانه وطالت ليال والمعالم بيد [2]

تزول أجيال من الناس فوق هذه الأرض، فينتقلون إلي باطنها، بينما تظل الأرض باقية لا تتزع أوتادها[3] أن الاغتراب هنا هو الإحساس بالشيئية والتقزم قبالة الأشياء التي لا تتمتع بمكانة الإنسان علي الأرض.

وأرض لا تحسّ بمن علَيها ولا يبقي بها منهم غريب[4]

أن مفردات الطبيعة كلها، تواجه الإنسان بهذا العداء والصلف، وتنظر إليه بوصفه كائنا محدودا متناهيا ضعيفا، ونظرتها ابدا متعالية منفصلة:

لا يحمل الليل هم السائرين به ولا يجانب حزنا وهو مرقود[5]

الاغتراب هنا هو اغتراب الإنسان الكلي عن الوجود، هو انفصاله عن كل مفردات الكون حية وجامدة، هو خزفية الإنسان وتهشمه، هو سطوع كل مفردات الطبيعة في الصحة والدوام، فها هي الشمس ساطعة البصر لا تعاني فقدا أو تشويها لعينها، بينما تنوء عين الإنسان بالعجز، والمحدودية في الحياة

---

(١) ل١/ ٤٩ النحام ك فرس سليك بن السلكة قرماء قرية بوادي قرقرى باليمامة
(٢) ل١/ ٢٣٣ للواقف الكندي أراد به أمرئ القيس، لبيد هو الشاعر ابن ربيعة، عاش ١٦٠ عاما
(٣) ل١/ص ٢٣٧
(٤) ل١/ص ٨٣.
(٥) ل١/ص ١٤١

والموت معا، ولا يغيب عنا أن المقارنة العلائية هنا بين هذين الطرفين مقارنة منطلقة من ذات المعرى الموجوعة بفقد البصر:

طفئت عيون الناظرين، وأشرقت عين الغزالة، ما بها عوّار[1]

وليست الشمس فقط، بل دائرة الفلك كلها تتمتع بالسؤدد والقوة، فهل نحن قابلون للموت لسوء خلق فينا، هل نتلف لفسادنا؟ أنها تساؤلات تامل المعري :

سبحان ربك، هل يزول كغيره شرف النجوم، وسؤدد الاقمار

فكأنّ من خلق النفوس رأي لها ظلما، فعاقبها بسوء دمار[2]

ويحسد أبو العلاء الطير في الفضاء، حيث يرتع لا يعاني العيوب[3] وكذا الوحش التي لا تحمل ألا هم غذائها، وغذاؤها ملقي في التربة، ان كل الكوائن الحية تتمتع بما ينقص الإنسان.

وفي مقارنة سريعة بين الإنسان والنبت، يقف أبو العلاء علي حقيقة معني" تناهي الإنسان" حيث يصور نفسه زارعا يستطيل نباته مع الزمان، بينما يلحقه هو العطب والموت:

وأشهد أنني غاو جهول وان بالغت في بحث، ودرس

يجاد ثري، ولجعل فيه غرسا فيفقد ساعدي، ويقوم غرسي [4]

وكأنه يبرر لنا إيمانه باللاجدوى، وارتكانه إلي اللافعل.

أن الزمان في عين أبي العلاء بكل قواه، يقف مواجها الضعف الإنساني... وحين يطرح الزمان الإنسان أرضا لا يتوقف، بل يكمل دورته في لا مبالاة مستفزة:

نزول كما زال أجدادنا ويبقي الزمان علي ما نري

نهار يضئ، وليل يجئ ونجم يغور، ونجم يري[1]

---

(١) ل١/ص ٣٣٢. الغزالة : الشمس
(٢) ل١/ص ٤١٤.
(٣) ل١/ص ١٤٤.
(٤) ل٢/ص ٤٢، ٤٣.

وحين يبلغ التطرف النفسي مداه يري أبو العلاء الإنسان أقل من الجوامد ذاتا ، ويقف أمام سوار الكاعب، واصفا قوته وصموده- وهو الجامد الذي لا يحس- قبالة تداعي الكائن البشري:

" يا سوار الكاعب: كم رأت ذهبك من عين، متي عهدك معدنك، لقد تداولتك الأمم جيلا بعد جيل، تضرب تارة دنانير، ومرة حلية سيف،وربما تخذت منك الآنية: لقد بقيت، وفني مدخروك يا ضاحكا لتبكين، ويا منزلا لتوحشن، ويا شمل: أنك لرهين بشتات[٢].

أن قابلية الإنسان للتلف، وهو الكائن الذي متعه الله بالعقل والإرادة وذكاء الروح، والقدرة علي تعمير الحياة، هذه القابلية مدخل للاغتراب عن الوجود، ومدخل للتساؤل الموجع: [٣]

ما موقع الإنسان في الكون؟ وهل يفضله الجماد الغبي الذي لا خصوصية له ولا فعل؟

أنحن أفضل أم أشياء جامدة أضحت سواء لديها العين والأثر

وإجابة المغترب لابد أن تكون علي هذه الشاكلة:

ومن الفضيلة للجوامد أنها لا حسّ يتبعها، ولا أوطار[٤]

فإذا كان الاغتراب هو الانفصال عن الحياة، هو العزلة الخاصة، هو الإحساس بدفء الاغتراب وبكونه بيتا خاصا، إذا كان الاغتراب هو معاملة المواقف والأشياء والمعاني والأشخاص من (الخارج) لا من (الداخل) إذا كان هذا هو الاغتراب، فإنه ذات المعني في البيت السابق، هو حياة الجوامد... أن ابا العلاء حين يغبط الجوامد في حياتها الساكنة إنما يمدح الاغتراب الذي يفترض انعدام الحس والإدراك، وهو يمدح الموت أيضا ولكن أي موت، أنه فقط الموت دون ألم أو معاناة أو بلي.

أبو العلاء يضع الحياة كلها في مواجهة الإنسان، ويخلق من الوجود كله عدوا للإنسان، لذلك فهذا الأخير في نظره مغترب، بل هو في مطلق

---

(١) ل١/ ص ٦٧.
(٢)حديقة أبي العلاء/ ص ٥٣.
(٣)ل١/ ص ٣١٢
(٤) ل١/ ص ٣٢٦

الاغتراب في هذا الوجود، وهذا المعنى ركيزة من ركائزه في ذم الحياة، وتظاهره بالانصراف عنها، حيث لن تلتفت هذه الحياة وراءها إذا تركها الإنسان، وسقط في الطريق بلا أنفاس، لن تتغير، لن تأسف أبدا:

أصاح، أتدرك كيف بعدك حالها أجل مثل ما شاهدته بعد غيركا [1]

إن الحياة هنا هي الأنثى بمعنى من المعاني وهذا ما اشرنا إليه سابقا فسرمدية الحركة هي هي، وازدهار الكون هو هو، كذلك فإن فناء الإنسان هو هو.

نمضي، ونترك البلاد عريضة والصبح أنور، والنجوم زواهرا

عش مابدالك، لن ترى إلا مدى يطوى، كعادته، ودهرا داهرا [2]

" لم يكن غريبا أن تحدث مواجهة بين هذين الزمانين في فكر أبي العلاء: ولم يكن في وسع أبي العلاء أن يخفي هذه المواجهة التي كانت تصطرع في داخله بين زمانه، الذي لابد له من انقضاء، وبين بقاء الحياة في استمرارية لا تنتهي"[3].

ولأنه مغترب يظن أن معاناته لا يعانيها الكون، فيتمنى الهلاك للكون كله معه ويقول مع الوجوديين " بناء علي صلاحيتي التي لا يجادل فيها أحد، باعتباري المدعي والمدعي عليه، القاضي والمتهم، فانني أحكم علي تلك الطبيعة التي جاءت بي بكل قمة إلي الكينونة لكي أعاني واتعذب، أحكم عليها بالإعدام معي"[4].

أن أبا العلاء حين نظر إلي الحياة والموت، رأي اغترابه منهما معا، وفيهما معا لان معنيهما غامض ناقص مشوه، أن اغترابه واقع بين حب الحياة، ورفضها له، وطلبه للموت وإنكاره له، فهو لم يستسلم- أو لم يستطع أن يستسلم- لأي من معني الحياة أو معني الموت، فوقع بين المنطقتين غير ممسك بشئ في يديه إلا الفراغ:

---

(١) ل٢/ص ١٥٤.
(٢) ل١/ص ٣٦٧.
(٣) قضايا العصر/ص ٢٠٦، ٢٠٧
(٤) اسطورة سيزيف/ص ١٢٤.

لقد طال الزمان عليّ حتى غدوت ولي إلي الدنيا ركون

فلا أغرر إذا أجلي خطاني سيأتي الموت أغفل ما أكون[1]

فحياة أبي العلاء التي قامت علي الإحساس بالعجز والتشوه والنقص، حياة مرتكزة علي كل هؤلاء، حياة لا تنتمي إلي الإحساس بالحياة، لأن " الوجود الفاجع للشخصية في هذا العالم هو في أساسه نتيجة لارتباطه الوثيق بالموت"[2].

كانت حياة المعرى بحثا عن الأسباب المنطقية لوجوده في الحياة علي هذه الشاكلة، وهذه الصورة من العجز والعناء والمحدودية، وقد أسبغ مأساته هذه علي البشرية كلها، فرأي حياة الإنسان كلها بحثا عن الحرية: حرية التواجد، حرية الذهاب، ورفضا للتشيؤ والتناهي" والإنسان يؤكد حريته برفض الوضع الإنساني. وكرامة الوضع الإنساني تكمن في الاتهام الذي يوجهه ضد العالم"[3] هكذا يشعر الوجوديون والمعري الذي يحمل بعض سماهم الفكرية.

وأبو العلاء بحكم عجزه لم يرفض القيد المتمثل في الحياة والموت- لم يرفضه رفضا إيجابيا فعالا خالقا- بل كان رفضه رفض شاعر مغترب يبث شجونه، ويبرر عزلته عن الوجود كله بأنه مائت في الحياة، مائت في الموت، وأنه لم يستطع الإغضاء عن هذا المعني فيندمج في حياة خالصة، فقد جرب معاني الموت في عجزه، ومن ثم ظل حياته كلها يراقبه ويشكوه:

وإن لم تر الصقر الحمامة دهرها فمن شيم الورق الحذارمن الصقر[4]

نتائج الاغتراب الشعورية في شعر أبي العلاء:

---

(١) ل٢/ ص ٣٤٦.

(٢) للعزلة والمجتمع/ ص ١٧٦

(٣) فؤاد كامل / أندريه مالرو. شاعر العزبة والنضال دار للمعارف بمصر ١٩٧١م/ص ٤٦

(٤) ل١/ ص ٣٧٧

اصطدم أبو العلاء بالشر- في اعتقاده- أول ما اصطدم في هذه الحياة ممثلا في تلك العاهة التي أسلمت قياده لحياة نفسية مشوهة ناقصة، قائمة على الانفصال المحض، فإن التشوه – المادي- خلق له تشوها نفسيا معادلا أو مساويا له، لذا لم يعالج أبو العلاء وقضاياه، ولم ينظر إلي محنته في الوجود نظرة فكرية بحتة، ولم ينتم إلا لعجزه، وإحساسه العميق بالشلل، فعالج أموره في إطار انفعال فكرى منضو تحت كل انفعال يمر بمن عطلت حيويته، وفشل في ارتياد الحياة" ولقد يولد أحدهم من أصل شريف، ثم تأتي أحداث الحياة، فتعطل من قواه، وتذهب بأمنه، وما كان يبغي من مجد، كما قطعت الثورة الفرنسية بشاتوبريان، فإذا به حزين (يتشاءب الحياة) بدلا من أن يحياها، وهذا النوع من الاتجاه أقرب إلي الحزن منه إلي التشاؤم. ومن الشعراء أمثال الشاعر الإيطالي" ليوباردي" من تقعد به آفات الجسد عن المغامرة في الحياة كما يريد، فإذا به يصبح: " أنه ليس إلا جزعا نخرا يحس ويتألم"، ومنهم أمثال أبي العلاء ممن نزل بهم محنة لا فرار منها فأصابهم ما يشبه اليأس من الحياة، فتبرموا بها في ضرب من الاستهتار العقلي الذي يلهو بكل فكرة، وكل عقيدة، وكل عاطفة، لأن اليأس لا يستطيع غير ذلك".[1] وكل هذه النماذج، وغيرها تندرج تحت مقولة واحدة هي:

" الحياة المعطلة" التي توقع الإنسان بين متناقضين : العجز المحيط به، والقدرة المستحيلة التي يهفو إليها، وهذان المتناقضان يعلوان ليتجاوزا بالشخص- أحيانا- حياته الفردية، ومحنته الشخصية إلي آفاق محنة الإنسان في عمومه في كل زمان ومكان، فيجد العاجز او المعطل" أن سر شقاء الإنسان الذي يجعله أشد الكائنات عذابا هو أن له قدما في المتناهي، وقدما أخرى في اللامتناهي، وأنه قد صار هكذا ممزقا تتجاذبه ليس فقد أربعة خيول كما كان يحدث في العهود الرهيبة الغابرة، بل عالمان متناقضان".[2]

ومن ثم يجد الاغتراب، بيئة خصبة للنمو والتفرع بكل ألوانه ومظاهره

---

(١)- محمد مندور في الميزان الجديد ١٤٣

(٢)- عبد الرحمن بدوي العبقرية والموت ص ١٨٠

ونتائجه الشعورية.

وفي شعر أبي العلاء نجد مشاعرا بعينها وثيقة الارتباط بالاغتراب، لأنها ناتجة عنه" فهو بوجه عام في الحالة التي يطلق عليها الانجليز " spleen " والتي تملكت كل الشعراء البرناسيين والرمزيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا خصوصا، وقد تغنى بها بودلير فأجاد في مقطوعات عدة تحمل هذا الاسم الذي يجمع بين الملال والفراغ والقلق والتوثب الكظيم والشعور بالعجز الصارخ والضعف الضارع، مع رقة الإحساس بالضيق، وإرهاف الشعور بكل الخلجات الدقيقة اللطيفة".(١)

ولم تكن مشاعر أبي العلاء الناتجة عن الاغتراب إلا توجهات عاطفية الكون، نابعة من معاناة الذات، لا من الفكر المجرد الخالي من الصراع والتجربة.

ونتائج الاغتراب الشعورية في شعر أبي العلاء أعمق من أن ندرجها تحت مقولة اليأس العقلي والعاطفي(٢) أو التشاؤم والاكتئاب(٣) لأن هذه النتائج الشعورية أدت به لفرط قوتها إلي أن يرفض الحياة(٤)، بل إلي أن يرفض فكرة الوجود ذاته علي الإطلاق.

وأول هذه النتائج الشعورية للاغتراب: إنكار العلة الغائية للوجود:

نظر أبو العلاء المعرى إلي محنته في الحياة، تأمل علتها وحكمتها، ومدى أهميتها بالنسبة للكون، نظر إلي الحياة حوله وتساءل عن المنطق الذي يقف وراء الشرور التي تلم بالناس والشرور التي تخرج منهم، والتخبط الذي يـ ك ، خطوات الإنسان في كل شئ يفعله، والأنصبة المتفاوتة لكل شخص في الا ياة... نظر إلي التاريخ البشري فوجد ذات الاضطراب والتوتر، والاختلال في موازين الأخذ والعطاء.. ذات التباين الصارخ بين القدرات والحظوظ...، نظر نظرة شمولية إلي الوجود كله وجده يبدأ من لا شئ وينتهي إلي لا شئ، وبين اللاشيئين حياة غير ممنطقة قائمة علي المصادفات البحتة والأنصبة غير

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي. العبقرية والموت / ص ١١٤

(٢) في الميزان الجديد / ص ١٤٣

(٣) د. علي أدهم بين الفلسفة والأدب

(٤) السابق/ ص ١٨

المتكافئة التي لا يحكمها الجهد، ولا يتحكم فيها العقل، وجد كفاحا إنسانيا متواصلا معذبا دون مبرر.. فخرج من هذا كله بأن الوجود لا يخضع لأي تدبير معلل، أو أية علة حكيمة... وهو يجهر بهذا تارة،- إذا غلبه الانفعال-، ويستتكره في تحفظ تارة أخرى لأنه يعلم اصطدامه بالمنطقة الدينية، يعلم تناقضة مع ما أقر به هو من استسلام لله وإقرار بحكمته، وعلمه، وقدرته...

لولا بدائع دلت أن خالقنا   أدري وأحكم قلنا خلقنا لهم[1]

ولا نعتقد أن قوله " لولا" أفادنا شيئا إذ يهيمن قوله" خلقنا لهم" على كل شعره وتبدو له فكرة العلة الغائية للوجود هازة بالعقل الإنساني، تبدو مستحيلا كالعنقاء، كطائر" الكركدن" شيئا يلوح للقافلة البشرية كالسراب يحثها علي المسيرة، بينما يسوقها إلي الموت الذي تحاول هي تجاوزه والعلو عليه، فتبدو كالخيل التي تكافح لجامها وإذا بمحاولات القضم والتمزيق تنال منها وتشوه نواجذها يقول المعري :

خلقنا لشيء غير باد ، وإنما   نعيش قليلا، ثم يدركنا الهلك

كخيل صيام تألك الدهر لجمها   بغيظ فقد أدمي نواجذها الفلك

ولابد أن أبا العلاء كان يغبط كل من ينتمي إلي فكر أو مذهب، يري في الموت علة معقولة، ولابد أنه كان يغبط كل مسلم اسلم راحتيه إلي ما ارتضته السماء وما نهت عنه، وآثر السكينة والسلام في غير حاجة إلي التمرد والتساؤل المودى إلي التهلكة، ولابد أنه كان كذلك لأنه لم يكن أيا منهما، بل كان الموت علي وجه الخصوص دليله القوى علي انعدام العلة الغائية للوجود وافتقاد الحياة للمعنى... ولا يعني هذا أننا ننفي عنه الإيمان بل ننفي التصالح مع العجز والركون إلي الهدوء. [2]

وإيمان أبي العلاء بانعدام العلة الغائية للوجود كان مدخلة للقول بالعدمية، فرآها جوهرا في نسيج الوجود، وأساسا في بنيانه.

والعدمية معنى مقابل للحياة أو الوجود، هي الشغل الشاغل للامنتمي الذي يميل" إلي التعبير عن نفسه بمصطلحات وجودية، ولا يهمه التمييز بين

---

(١)ل٢/ص ٢٧٥.

(٢)ل٢/ص ١٤٦.

obeikandl.com

الروح والجسد، أو الإنسان والطبيعة، ذلك أن مثل هذه الأفكار تنتج تفكيرا دينيا، وفلسفة، في حين أنه يرفضهما معا، أن التمييز الوحيد الذي يهمه، هو بين الوجود والعدم"(١) لكنا نعتقد أن هذا القول ليس سليما علي إطلاقه فيما يخص أبا العلاء، فميل أبي العلاء إلي العدمية لا يطعن في عقيدته(٢) لكنه في ذات الوقت ليس ميلا قابلا لأن يؤول إلي زهد، أو ان يظن انه من قبيل الزهد(٣) فهو في الواقع نتيجة من نتائج الاغتراب وثيقة الصلة بفقد البصر، وهو نتيجة شعورية للاغتراب تؤكد لنا أن فقد البصر كان في حجم الموت بالنسبة لأبي العلاء، وأنه محنة كافية من وجهة نظره لأن يقول بلا معقولية الحياة، ولا جدوى التفاعل مع الحياة، أو في الحياة.

أن قوله بالعدمية ترحيب بالموت، الموت للذات العاجزة، الموت للحياة التي بخلت عليه بالحياة، الموت للأحياء الذين لم يشبههم يوما في استواء حياتهم، الموت للآمال التي لم يذقها قط، الموت للآلام التي شوهت جبينه وأدمت كبرياءه الإنساني، الموت للوجود كله الذي استعصي عليه بأسراره وحقيقته، وتبدي له خاليا من الروح والحكمة والعلة.

القول بالعدمية يعكس قلق الحي في مواجهة الموت والفناء، وهو أدل دليل- رغم ذلك- علي تمسك أبي العلاء بالحياة، لأن القول بالعدمية محاولة من فكره المنفعل أن يلغي من ذاته فكرة الوجود بأسره" ولابد من التمييز بين القلق والخوف، وقد قام كيركجورد بهذا خير قيام، فهو يقول: " أما القلق فشعور آخر نعانيه، لا في وجه الأخطار اليومية... وإنما في مواجهه سر الوجود والعدم، وعندما نقف إزاء هوة المتعالي وحيال المجهول، فالموت لا يثير شعور الخوف فحسب من حادثة تقع دائما في عالم كل يوم، وإنما يثير القلق في مواجهة المتعالي... الخوف يرتبط بالهم، وبالخشية من الالم، فضربات القدر، والخوف يفشل في أن يصيب أعيننا ذلك العالم المتعالي الاسمي، فهو مرتبط بمالم أدني ومستوي أدني، وهو مقيد بما هو تجريبي، أما القلق فيقع علي شفا المتعالي، حين يواجه الإنسان الأبدية، وحين يلتقي هو والمصير وجها لوجه"(٤).

---

(١)ل٢/ ص ٢٧٥.
(٢)كولن ولسون/ اللامنتمي /ص ٢٧.
(٣)عقيدة أبي العلاء/ص ٣٦١.
(٤)أبو العلاء ولزومياته /ص ١١٧، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦

وحينئذ قد ينتهي الأمر بالمغترب إلي قنون الموت، بل إلي صبغ الوجود كله بصبغته، والتسليم بكل طرائقه ونتائجه[١]

يجمع أبو العلاء بين الشعور بانعدام العلة الغائية للوجود، والشعور بالعدمية فيجعل من الأول مطيته إلي الثاني، ويجعل من ذاته قربانا للموت الذي يلحق بكل الوجود بعده: [٢]

بدر يصور، ثم يمحق نوره	ويغرب المريخ ثم يعود
لا تحملن ثقلا علي فانني	وهنا، وقد أم الركوب صعود[٣]

هذا البدر هو الإنسان في سعيه للاكتمال والاستدارة، والألاة والالتفاف بينما يتربص له الوجود بـ(المحق). أن الاكتمال والمحق دائرة المصير الإنساني المأساوى، وهما داعية أبي العلاء إلي إيثار الاستسلام إلي الموت كما صور في الأبيات السابقة.

أن الشعور الجارف بالحياة، يستتبع اهتماما قلقا بالعدم، .كذلك فإن المعاناة العميقة من الاغتراب تؤدي إلي تغليب فكرة العدم علي الحياة، فهذه الثنائية: العدم والوجود هما ثنائية حياة أبي العلاء الخاصة: العجز الجسدي، والإقبال الوجداني علي الحياة. هما ترجمة لهذه الثنائية ومعادل لها.

وقد أنهي أبو العلاء ثنائية الوجود والعدم الميتافيزيقية مثلما انهي هذه الثنائية في حياته الشخصية، ففي الأخيرة اثر أبو العلاء الارتكان إلي للعزلة والحياة الشديدة الانطواء، أما في الثانية، فقد أسبغ العدم علي الحياة كلها، والعدم نظير العزلة... نظير اللاشئ...

أن أبا العلاء استأثر به شعوره بذاته، إلي حد أنه أراد تعطيل للحياة كلها، والوجود كله- في رؤاه وتأملاته- حين أوقفت حياته وتعطلت، فأوسع من دائرة العدمية لتحيط بالحياة كلها أولها وآخرها، وغلف التاريخ

---

(١)الشخصية بين الحرية والعبودية/ ص ٤٥، ٤٦

(٢) اللامنتهي / ص ٤٠

(٣) ل١/ ص ٢٥١

البشري كله بهذا المصير القاتم الذي ارتضاه الكون لـه في سخرية متئدة، وشجن مستسلم:

في العدم كنا، وحكم الله أوجدنا ثم اتفقنا علي ثان من العدم

سيان عام ويوم في ذهابهما كأنّ مادام ثم أنبت لم يدم[1]

واللزوميات بخاصة تمتلئ بهذه المشاعر التي تجعل من العدم قانونا مهيمنا علي الوجود.

حياة كجسر بين موتين، أول وثان، وفقد الشخص أن يعبر الجسر[2]

الإنسان يعيش حياة مخاتلة، إذ تنسف العدمية كل معني للأمل أو الطموح فتتراءي آمال الإنسان أقسي ما يكون المستحيل:

نمرّ سراعا، بين عدمين ، مالنا لباب، كأنا عابرون علي جسر

وقد نأمل الآمال، وهي منوطة إلي ذنب السرحان، أو عنق النسر[3]

ويقود العدم رؤية أبي العلاء حتي يرى البشرية كلها" سكن البلي" هذا البلي هو الحياة وهو الموت، وما بينهما، أنه الانتماء الوحيد:

أما اليقين فأننا سكن البلي ولنا هناك جماعة فراط[4]

والإنسان في منظور هذه العدمية" خزف صدئ" – إذا جاز هذا الوصف- خزف تصنعه أقران المعاناة في الحياة، وحين يقذف إلي الموت يتحطم لا شك علي صخرته:

ضحكنا، وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج، ولكن لا يعاد، له سبك[5]

---

(١) ل٢/ ص ٣١٣.
(٢) ل١/ ٢٩٩.
(٣) ل١/ ص ٣٧٩ وذات المعني في ل١/ ١٧٥.
(٤) ل٢/ ٧٤.
(٥) ل٢/ ١٤٧.

ضآلة الإنسان،"-وقابليته للكسر" هي الحتمية الحقيقية الوحيدة في هذه الحياة، أن الإنسان في شعر أبي العلاء المعرى نطفة ضئيلة لا يرهق لحياة حين تهم بسحقه، بل تكفيه خطفه الموت تعدمها:

إنما المرء نطفة، ومداه خطفة ليس عطفة حين يمضي

صاح، أن جال في الحوادث فكرى صاح يا للأسي ينفر غمضي[1]

هنا يثور كبرياء المغترب لمصيره الذي طالما تمني لو اختاره بحرية، وهنا يتجلي هذا الكبرياء لأبي العلاء في معني واحد، هو الإقبال علي العدم في طواعية وشجاعة، هو احتضان السحق، واتخاذ الموت انتماء ووجهة يولي شطرها:

أنا صائم طول الحياة، وأنما فطرى الحمام، ويوم ذاك أعيد

وهذا المعني هو المعني الحقيقي لما عناه أبو العلاء بالزهد" هذا الزهد ليس تقشفا سطحيا، أو دعوى ساذجة لتحديد النسل، وإنما هو دعوة للعدم، ضد الوجود، من حيث ماهيتهما المطلقة".[2]

ومن خلال العدمية يثير أبو العلاء قضية عميقة هي " حرية الإنسان" أو حرية الوجود الإنساني، فيتساءل: هل للإنسان أن يرفض العدم، وان رفضه هل له خيار آخر، هل للبشرية- إمكان التواجد في أرض غير أرضها ، يقول :

أقمنا في الرحال، ونحن سفر كأنا قاعدون علي الرحال

إذا ما كان أثمدنا ترابا فأىّ الناس يرغب في اكتحال

وما سمحت لنا الدنيا بشئ سوى تعليل نفس بالمحال[3]

أن كحل البشرية عدم (تراب) فكل ما نراه موت وكل ما نغوص فيه بلي: " أن الرجل بات يدرك إدراكا كيانيا، أنه لا حقيقة سوي انتهاء الديمومة، وتسيد العدم، حتى ما قد يبدو خيرا، أن هو في الحقيقة إلا الوهم، أنه يستشعر الغربة والدوار في نفسه، وفي الكون، وإذا تعذر علي الرجل أن تبرأ جراحات روحه بالسباحة في بحار التصوف النورانية، فقد انتهي إلي أنه لا خلاص إلا

---

(١) ل٢/ ٧٠.
(٢) ل١/ ٢٤٩، ل١/ ٢٤١.
(٣)ل٢/ ٢٣٥

بالموت، الذي هو الحق واليقين." [1]

فحين يهيب أبو العلاء بالقافلة البشرية أن تتدارك أمرها قبل الموت، ترتدي أبياته لباس الأدب الأسود، والكوميديا السوداء، والسخرية الفاجعة.

تلاف أمرك من قبل التلاف به فغاية الناس في دنياهم التلف [2]

إنه ليس رضي بالمصير، إنه انسحاق المهزوم وركود العاجز الذي قد يظن به الهدوء والسكينة، بينما هو مائت في انفصاله عن عالم الحركة والأحياء.

أن أبا العلاء الذي حرمته عاهته الحركة والقدرة والتصرف، لا يري الدهر إلا متحركا قادرا متصرفا، ولا يري الإنسان إلا من منظور رؤيته لنفسه- واقفا، خزفا متهشما في يد الدهر، بل أن خيوطه التي تعلقه في الهواء تأكل منه، وتقتدر عليه:

والمرء يسخط ثم يرضي بالذي يقضي، ويوجده الزمان ويعدم

والرضي والسخط ليسا هنا بمعنيهما الظاهري، لأن أبا العلاء لم يدرك أولهما- الرضي- بهذا الشكل في حياته، بل هما هنا التوقف والحركة، الفعل واللافعل، الرضي في قاموس أبي العلاء النفسي- بعد أن خبر الألم في الحياة- ليس له إلا معني واحد هو أن يتحجر في الحياة، كي لا يستشعر ألما، أن يتقولب في قالب الجوامد ويفقد الاتصال بالمشاعر كلها:

تفكر، فقد حار هذا الدليل وما يكشف النهج غير الفكر

فياليتني حجر لا يحس بالخطب، أو طائر ما احتكر [3]

ولأن الفكر أبان الحياة بشعة سوداء، يؤثر المغترب العدم علي هذه الحياة:

رأي بنو الحزم أنّ العيش فائدة حتى استبانوا، فقالوا: حبذا التلف

والتلف لغة حادة تصف الموت والعدم، وكأنه يؤكد بحسم رغبته في

---

(١) الفكر والفن/ص ٢٩٨

(٢) ل/٢/ ١٠١

(٣) ل/٢/ ٢٨٣

التفتيت و الاشطار ، ومن ثم الضياع في رحم اللانهائية حتى لا يكون ثم رجوع أو احتمال للرجوع، أو إصلاح البنية التلف تعبير حاد عن شعور أكثر حدة بالضياع.

obeikandl.com

العبثية إحدى النتائج الشعورية للاغتراب:

العبث هو افتقاد المنطق و النظام والنتيجة، هو معايشة الفوضي في كل الأنظمة المحيطة... والغريب الواقعي يستشعر غياب الحقيقة،[1] أما الرواقي فيستشعر ارتكان الوجود إلي الصدفة المحضة[2] أما الوجودي المغترب فإن هذه المشاعر كلها تجتمع عليه، لأن العبث اغترابه ، وأساس هام من أسس أدانته للعالم كله بدءا من ذاته: " أن الفلسفة الوجودية تبدأ عادة من موقف يشبه موقف الغريب تماما، ذلك أن نقطة البدء عند الوجوديين هي صدمة من الانفعال تهز الإنسان، فجأة عندما يدرك، أن الحياة لا معني لها".[3] فالعبث هو تجريد الأشياء من قشرتها اللامعة، ثم النظر إليها مسجاة علي ظهر الحقيقة، فإذا هي فارغة جوفاء من كل جوهر.

والمغترب يصطدم في إقباله علي الكون بلا منطقية هذا الكون" اللامعقول والحنين البشري، واللاجدوى التي يلدها لقاؤهما، هذه هي الصفات الثلاث في الدراما التي يجب بالضرورة أن تنتهي بكل ما في الوجود من منطق".[4]

فحين يتوجه الروح الإنساني لرشف كل ما في الوجود من زوايا، ومذاقات محسوسة وأخرى معنوية، حين يتوجه إلي الكون بهذه الكيفية فيصطدم بغموضه الكثيف وفوضاه الراسخة في نسيجه، تتحول هذه الكيفية السابقة المتفتحة للوجود إلي رفض للحياة، واقتناع بسخفها، واستشعار لعبء المواصلة اليومية معها، وتضيف ولادة كل يوم جديد إلي المغترب مزيدا من الجنون والاظلام والشجب للحياة الأصلية:" حين يصبح الخواء بليغا، حين تتحطم سلسلة الحركات اليومية، حين يفتش القلب عبثا عن الرابطة التي تربطه ثانية، فإن ذلك يشبه العلامة الأولي من علامات اللاجدوي".[5] وبهذا المعنى يتساءل المعري: ما الذي نستفيد

---

(١)ل١/ ٤٣٧

(٢)ل٢/ ١٠٤

(٣)د. محمد زكي العشماوي الأدب وقيم الحياة المعاصرة ص ٥٣، ٥٤.

(٤) د. محمود رجب. الاغتراب جـ١ ص ٧٧.

(٥)السابق/ص ٢١.

من هذه الدنيا بطول الرواج و التكبير[١]؟

العبثية تلد السأم والملال من الحياة، السأم المرتبط بالمعاناة، والتأمل الفكرى السأم الذي هو في صميمه رفض لمجرد التفكير في منطقة الوجود وعمقه" أن أبا العلاء، الذي وجد نفسه، كما يخبرنا عنه بحق الأستاذ أمين الخولي، يقول عبر اللزوميات كلها دون مواربة، أنه توقف عن الانتماء لديناميكية الكون، ونتأ عن تشكيله النفسي والشعوري العام، وهو إذ عجز عن أن يكون في الكون قد أصابه الغثيان فسقط".[٢]

والتاريخ البشري كله في عين أبي العلاء مراوحة بين مشاعر متضاربة، وتناقضات نفسية مرهقة لا تؤدي إلي جدوى أو الي جديد:

إذا فزعنا، فإن الأمن غايتنا — وإن أمنا، فما نخلو من الفزع

وشيمة الأنس ممزوج بها ملل — فما ندوم علي صبر ولا جزع[٣]

وأبو العلاء مولع بتناقضات النفس البشرية، وتناقضات المجتمع الإنساني، وتناقضات الكون في عمومه- وهي مناخات نفسية لها ما يقابلها في الخصائص الفنية لشعره ورغم ولعه هذا فهو يري في التناقض المبثوث في طبيعة البشر، وطبيعة الدهر مبعث سأم، دليل عبث، لأنه يعكس الافتقار إلي نظام مطرد:

والشر في الأنس مبثوث، وغيرهم — والنفع مذ كان ممزوج به الضرر

تشاكلوا في سجيات مذممة — وأشبهت لبوات الغابة الهرر

تناقض في بني الدنيا، كدهرهم — يمضي المقيظ، وتأتي بعده القرر

إن وجدان الشاعر محتدم دائما، ورؤية المغترب لا تقف إلا عند أطراف الأمور، كذلك فإن الفرد المتميز في التاريخ البشري" لا يعرف الاعتدال في سلوكه"[٤] والمعرى يجمع الحياة كلها في صورتين

---

(١) ل ٤٢٨/١.

(٢) الفكر والفن في ادب ابي العلاء/ص ٢٩٦.

(٣) ل ٤٢٨/١.

(٤) ل ٣٠٩/١

متناقضتين مدللا علي عبثها، وهو في احتدام اغترابه لا تستوقفه الطباع الفردية، بل تستوقفه العصور والدول والشرائع، والديانات، فيري الأشياء كلها تتناسخ، والأيام كلها تتوالي بذات السحنة والرائحة:

وكم شاهدت من عجب وخطب ومرّ الدهر بالإنسان يسلي

تغير دولة، وظهور أخرى ونسخ شرائع، وقيام رسل[1]

الحياة كلها من واقع هذه الرؤية متشابهة البدايات والنهايات، والفوضى، أنه يعاني الشعور بالعبث الذي يدفع إلي الجنون أو الموت، والسأم الشره إلي الفناء:

وآخر الدهر يلفي مثل أوله والصدر يأتي علي مقداره العجز

فجهزيني، لحاك الله والدة علي أتبع أصحابي فأنتجز[2]

هنا يكون الارتكان إلي الصمت منطقيا ذا حجة قوية، إذ كيف يتسنى التفرد في كون لا يغير رداءه، ولا يدرك أبجديات النظام والمنطق؟

إلا إنما الأيام أبناء واحد وهذي الليالي كلها أخوات

فلا تطلبن من عند يوم، وليلة خلاف الذي مرت به السنوات[3]

بل أن الموت نفسه في هذه الرؤية المتمردة الساخطة الممتلئة بالسأم يبدو حادثا رتيبا، وألفة مقيتة، فموتنا يتبعه موت أولادنا، يسبقه موت آبائنا، دون أي استحداث لسلوك أو معني آخرين:

نزول كما زال آباؤنا ويبقي الزمانْ علي ما تري

نهار يضئ، وليل يجئ ونجم يغور، ونجم يري[4]

أن السأم في رؤية المغترب غذاء الحياة الرئيسي لكل من فيها، أما

---

(١) ل١/ ٣٠٩

(٢) ل٢/ ٢٣٩ وذات المعني ل١/ ٤٠٦.

(٣) ل٢/ص ٣

(٤) سقط الزند بيروت ص ٢١٩

الحياة ذاتها، كمعني مجرد، وشئ جامد فهي لا تستشعر هذا السأم لذلك فالانفصال عنها نتيجة طبيعية لانفصالها عنا.

وما فتئت، وأيامي تجدد لي — حتي مللت، ولم يظهر بها ملل

أن سأم أبي العلاء سأم من الحياة المزيفة المشوهة التي عاشها، وليس سأما من الحياة الأصلية، لأنه ببساطة لم يذق الأخيرة:

أشفقت من عبء البقاء، وعابه — ومللت من رأي الزمان وصابه[1]

" هل كان الوجود الإنساني في رؤية أبي العلاء لا يعدو أن يكون مجرد نزوة يستحيل علي الإنسان أن يبررها عقليا؟ هذا هو الواضح علي الأقل". [2]

وليس من داع للعبثية أعظم من الشعور بمحدودية المعرفة الإنسانية، وسذاجتها، أو علي الأقل عدم اقتدراها علي فك رموز الوجود، أن نقصان هذه المعرفة يجعلها تتضارب في أجزائها بين شخص وآخر[3]، بين جيل وآخر...

ونقصان المعرفة يعني انعدام اليقين، ويعني الارتحال إلي الموت حيث يفتقد الأمان في الحياة.

وقد عدم التيقن في زمان — حصلنا من حجاه علي التظني
فقلنا للهزبر: أأنت ليث — فشك وقال: علي أو كأني
وضعت علي قرا الأيام رحلي — فما أنا للمقام بمطمئن[4]

وانعدام اليقين مثلما هو داعية إلي الثورة والتمرد علي الحياة، هو أيضا داعية العبث بكل القيم، وعلي رأسها قيم المعرفة والحقيقة، وقيم الإدراك، لأن العبث وقوف في منطقة الظل، حيث لا رأي يمكن تحققه، ولا شئ آخر سواه ملجأ:

(1) ل١/ ١٨١ وذات المحني ل١/ ٢٢٨، ٢٣٦.
(2) ق٢/ ٧١٥ الأري. العسل الصاب المر
(3) قضايا العصر في لدب أبي العلاء المعرى/ ص ٣٤١، ٣٤٢ بتصرف
(4) مع أبي للعلاء في سجنه / ص ١٤.

obeikandl.com

أما اليقين، فلا يقين، وإنما أقصى اجتهادي أن أظنّ وأحدسا[1]

وفي مدينة العبث تختلط الأشياء وتتبادل المقاعد، ويظهر الإيمان باللامقياس، أو (الأنوميا) أو اللامعيارية. فكان العبث مؤد إلي إنكار العلة الغائية للوجود، وناتج كذلك عنها:

إذا سألوا عن مذهبي فهو بين وهل أنا إلا مثل غيري أبله؟ [2]

أن الانسحاق والعجز، والشعور بالضآلة قبالة وجود يتسم بالنقيض من ذلك، يسلم المغترب إلي مواقف غاية في التعقيد، فهو علي الصعيد النفسي يلمس أطراف المشاعر والاحساسات بقوة، أما علي مستوي الفعل أو الموقف الإيجابي في الحياة فأنه يؤثر منطقة الوسط التي ليست هنا بمعني الاعتدال، بل بمعني انعدام الهوية، وإيثار الصمت، وتفضيل الظلام. [3]

وقول أبي العلاء السابق: وهل أنا إلا مثل غيري أبله يمثل ركيزة وجهه الميتافيزيقي التي يبرر بها موقفه في الشطر الأول من ذات البيت:" وأن سألوا عن مذهبي فهو بين" حيث- يصبح قصور المعرفة الإنسانية برهانا علانيا علي عبودية الإنسان، وعجزه عن التحرر[4].

والموت – بالطبع- أحد دواعي شعور المعري بالعبث ، لأن الموت استلاب للحرية الإنسانية، كشف لتفاهة الإنسان، نفي للقيم والعمل، أن أبا العلاء" هو الرجل الذي كان من أشد الناس تبرما بالزمان، والمكان، ونقمة علي حياة، كان يحسبها جناية وأثما، لأنها في اعتقاده، أضيق من المكان، وأقصر من الزمان، لها أول فيه بعض الحلاوة ، ولها آخر كله مرارة، ومرارة آخرها تمحو حلاوة أولها". فتفقد الطعوم والأشياء طزاجتها، ورونقها :

إذا كان الثراء إلي زوال فكل ممول منا حريب[5]

" أن اللامعني ليس هو فقط خارجنا، بل هو في داخلنا".[6]

---

(١)ل٢/ ص ٣٨٥.
(٢)ل٢/ ٣١.
(٣)ل٢/ ١٥٣ وذات للمعني ل١/ ٢٩٩.
(٤)مع أبي العلاء في سجنه /ص ١٤.
(٥)د. / محمد زكي العشماوي /فلسفة الجمال في الفكر المعاصر /ص ١٧٥.
(٦)ميخائيل نعيمة. رهين المحبسين. الهلال يونيو ١٩٣٨م/ ص ٨٧٣

أن عزلة العمي التي احاطت بأبي العلاء، خلقت حوله من البداية جوا من العبث واللاجدوى، لذلك كانت عزلته المادية تأكيدا علي عزلة العمي، ونتيجة لها، كانت قمة من قمم شكوكه في الوجود، ورفضه للعالم المحيط، كانت عكوفا علي الداخل، ورفضا للخارج، وخلقا لكون خاص، حيث الكون الحقيقي المحيط غاية في الغوضي.

العزلة العلانية جهد فردي متميز لمحاولة انقاذ ذات عاجزة، دامية،تحاول الحفاظ علي شرنقتها، وبوتوبياها المستحيلة.

فهل معني هذا أن ابا العلاء اطمأن إلي حياة الاغتراب؟ هل اطمأن إلي أن الحياة" تعاش بصورة أفضل إذا لم يكن لها معني؟"(١)

أم أنه افتقد الشرائط التي تحقق بها هوية الإنسان.. تلك الهوية التي أن لزمها الصراع في الحياة، فأنه يلزمها أيضا – وهذا الأهم- أن تنتصر في هذا الصراع علي " وجود مبدأ مظلم عنيف لا عقلي، كما تفترض القدرة في الروح علي معاناة الانفعالات العارمة، وكذلك تفترض أيضا انتصار الروح النهائي الدائم علي هذا المبدأ اللامعقول".(٢)

أنه من الواضح أن أبا العلاء فشل في تحقيق التوازن بين معطيات الوجود له، وما يريده من هذا الوجود، وكأن ابتلاءه بفقد البصر صغيرا كان بمثابة رمز من الوجود، أو رسالة من الوجود تنبئه بما سيعانيه من مصارعة الحجب والظلام والعجز طيلة حياته.

كان فقد البصر لأبي العلاء فقدا للتوازن في الحياة، فقدا للصلة بينه وبين الحياة، كأن جسرا للاغتراب، لأنه شتت لديه قوى الاستقبال والإدراك والفعل" أن ويلسون لا يعتقد أن الاعتماد علي التفكير أو العقل المجرد قادر علي حل مشكلة الغريب، فإن ثمة إمكانات أخرى في الإنسان لابد من استغلالها، وتطورها، ليكشف عن مبررات للشر، الذي أحاق بالبشرية، والذي هو في الحقيقة سر من أسرار أزمة الغريب الكبري، وأن هذه الإمكانات تنحصر في قدرة الإنسان علي الاستفادة من قوى ثلاث

---

(١)ل٢ / ٨٣

(٢)اسطورة سيزيف/ ص ٦٢

ذكرها نيتشه، وايدها ويلسون، بكل اهتمام هي. قوة الإرادة، وقوة العقل، وقوة العاطفة وأن إيجاد الوحدة بين هـ ه القوى هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسي، أو التكامل النفسي عند الغريب".[1]

رغم هذا فإن للاغتراب وجها آخر خفي هو أنه في حد ذاته ألفة للمغترب لأنه عالمه الوحيد المتميز الجديد الراقي" أن أريد هو أن أثير المتناقضات، وكل شئ هو منظم بحيث أنه يأتي بذلك السلام المسموم الذي هو وليد اللاتفكير واللامبالاة، وإغفاء القلب والاعتزال القاتل".[2]

فقد يستمرئ المغترب تلك المدينة التي صنعها من جوعه، وهزاله، والتي لا يمدها الوجود برضاعه، قد يجد المغترب في تلك المدينة تميزه الذي كان افتقاده، مدخله إلي الاغتراب.

---

(١) فلسفة الجمال/ ص ١٩٠

(٢) أسطورة سيزيف/ ص ٢٩

obeikandl.com